

في العصر العباسي الثاني

أول ما نقف عنده من موضوعات الشعر في هذا العصر الذي يشغل نحو مائة عام (٢٣٢ - ٣٣٤ هـ .) موضوع المديح ، إذ مضى الشعراء فيه يرسمون للخلفاء والوزراء والولاة المثل الأعلى للحاكم كما يترأى في أذهان الشعب ، فالمتوكل وغير المتوكل من الخلفاء والفتح بن خاقان وغير الفتح من الوزراء وعبيد الله بن عبد الله ابن طاهر حاكم بغداد وغير عبيد الله من الولاة يضعه الشعراء في الإطار الذي تريده الرعية من التقوى ومن نشر الأمن والعدل في ربوع البلاد ، على شاكلة قول البحتري في المتوكل ، وكان اسمه جعفراً :

خلق الله جعفرًا قِيَمَ الدُّنْيا سَدَادًا وَقِيَمَ الدين رُشْدًا
أظهر العدلَ فاستنارت به الأَرْضُ ضُوءًا وَعَمَّ البلادَ غُورًا وَنَجْدًا

وهذا المطلب الشعبي مطلب العدل كان يكرر دائماً في مديح الوزراء والولاة ويكرر معه لإحكامهم التدبير لشئون الرعية وسياستها مياسة حميدة . وكل ذلك كان مشاركة للشعراء في تصور سياسة الدولة وفي الدفاع عنها وبيان أنها تحكم الرعية حكماً رشيداً ، وكان شعراء المديح لذلك أشبه ما يكونون بوسائل الإعلام الحديثة للدولة ، فهم يصورون للعامة مياستها ، والدولة تستغلهم للدعوة السياسية لها . وكان حزب الشيعة يدعو للعلويين ضد العباسيين دعوة قوية ، مؤكداً حقوقهم في وراثة الخلافة عن الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم من جهة أبناء علي بن أبي طالب ابن عم الرسول عليه السلام وبطل الحروب الإسلامية الأولى ، وقد أوصى له الرسول من بعده - في رأيهم - بالخلافة ، ولأنهم من جهة ثانية أبناء السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول الكريم ، وهم أولى القرشيين بتحقيق المساواة التي يطمح إليها الناس وهم أقدرهم على أن يسوسوهم مياسة تملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً . ويتنصر للعباسيين كثيرون ، في مقدمتهم البحتري شاعرهم الرسمي ، وكان كثيراً ما يصور حقهم الشرعي في الخلافة بمثل قوله :

شرفاً بنى العباس إن أباكمُ عمُ النبیِّ وعیصُهُ المتفرعُ
وأرى الخلافةَ ونهى أعظمُ رتبةٍ حقاً لكم ووراثَةً ما تُنزعُ
أعطاكموها الله عن علمٍ بكم واللهُ یُعْطِی مَنْ یُشَاءُ ویَنْعُ

فالعباس جد العباسيين عم الرسول عليه السلام من العيص منبئت الشجر الضخم ،
أو بعبارة أخرى من الأصول فهو عم الرسول ، بينما على من الفروع ، ويصرح
بحكم الميراث في الشريعة الإسلامية ، إذ يحجب العم ابن أخيه في الإرث . وكان المتوكل
يكاد يطير فرحاً حين يسمع مثل هذه الدعاية السياسية من البحرى . وقد ملأ الخلفاء
حجوره بالأموال ، حتى قالوا إنه كان يمشى في موكب من عبيده وأنه كان يملك ضياعاً
كثيرة . وبلسان هذا الحزب العباسى كان مروان بن أبى الجنبوب ينشد مثل قوله :

مُلْكُ الخليفة جعفرٍ للدين والدنيا سلامَةٌ
لكمُ تُراثُ محمدٍ وبِعْدَلكمُ تُنْفِى الظُّلَامَةُ
يرجو التُّراثُ بنو البنا تِ وما لهم فيها قُلامَةٌ
والصُّهْرُ ليس بوارثٍ والبنْتُ لا تَرِثُ الإمامَةَ
أُخِذَ الوراثَةُ أهلُها فعلامَ لو مُكِّمُ علامه

ومروان يردُّ على العلويين ما يزعمونه من وراثَةِ الخلافة عن أمهم فاطمة الزهراء
إذ العم مقدم على أبناء البنت في الوراثَةِ حسب حكم الشريعة الإسلامية ، والبنت
لا تَرِثُ الولاية على المسلمين ولا الإمامة ، فكيف يحق لأبناء السيدة فاطمة وأحفادها
أن يدَّعوا وراثتها عنها . ويقول الرواة إن المتوكل فرح بالقصيدة فرحاً ما بعده فرح ،
مما جعله يقلد مروان اليمامة والبحرين ويخلع عليه أربع خلع ، وينثر عليه ثلاثة
آلاف دينار ، مكافأة على هذا الشعر الذى سيتغنى فيه المغنون ، وسيذاع في الشعب
بكل وسيلة . وكان العلويون يلقون هذا الشعر المنتصر للعباسيين بأشعار كثيرة يقولها
أصحابها انتصاراً لهم ولحزبهم ، وشاع بين شعرائهم منذ العصر العباسى الأول
الحديث عن فضائل الإمام على . وللمفجع شاعر البصرة في العصر قصيدة طويلة يملحها
فيها سماها « ذات الأشباه » إشارة إلى أثر مُسْتَدِرٍّ إلى أبى هريرة جاء فيه أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم قال في جمع من أصحابه : « إن تنظروا إلى آدم في علمه ونوح في همه وإبراهيم في خلقه وموسى في مناجاته وعيسى في سنه ومحمد في هديه وحلمه فانظروا إلى هذا المقبل فتناول الناس ، فإذا هو على بن أبي طالب ». وقد استوحى المفجع هذا الأثر في نظم قصيدته ، مصوراً فيها مناقب الإمام ، وفيها يقول :

أيهما اللانمى لحبى علياً	قُمَ ذميماً إلى الجحيم خزيّاً
أشبه الأنبياء كهلاً وزولاً	وفطيماً وراضعاً وغديّاً
كان في علمه كآدم إذ عُدَّ	مَ شرحَ الأسماء والمكنيّاً
وكنوح نجى من الهلك من مَهْ	يَر في الفلك إذ علا الجوديّاً
وجفا في رضا الإله أباه	واجتواه وعَدّه أجنبيّاً
كاعتزال الخليل آزر في الله	ه وهجرانه أباه مَليّاً
ولو أن الوصيَّ حاول مَسَّ النَّـ	جُم بالكف لم يجدهُ قصيّاً

والزول : الفتي . والجودي : جبل بشمال العراق . وواضح أن المفجع يشير في البيت الثالث إلى قوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها) ويريد أن يسبغ عليه علماً لدُنْيَا كعلم آدم على نحو ما يعتقد الشيعة في أئمتهم ، ويقرّنه إلى نوح وحمله بسفينته في قصة الطوفان - كما جاء في القرآن الكريم - (من كل زوجين اثنين) ويشير إلى ما جاء في الذكر الحكيم من اعتزال إبراهيم لأبيه آزر في عبادته للأصنام . ويذكر في نهاية الأبيات عقيدة الوصية المعروفة عند الشيعة وأن الرسول عليه السلام أوصى حين نزل بغدير خمّ بين مكة والمدينة لعليّ بالخلافة من بعده . وكانت هذه القصيدة وما يماثلها من مدائح على بن أبي طالب تدور على ألسنة الشيعة في البصرة وغير البصرة .

ومعروف ما حدث من تطور في أداة الحكم لهذا العصر ، فقد تحولت مقابلته من أيدي الفرس إلى أيدي الترك ، ولم يكونوا أصحاب حضارة ، بل كانوا بدواً غيّلاً من أواسط آسيا استكثروا منهم المعتصم وخلفاؤه ، وأصبحوا مادة الجيش الحربية وقواده ، لهم السلطان كله والصولجان ، ونصبح بإزاء عصر جديد هو العصر العباسي الثاني ، والترك يولّون الخلفاء ويعزلونهم ويسفكون دماءهم غير مراعين فيهم عهداً

ولأذمة ، وأول خليفة استباحوا دمه المتوكل لسنة ٢٤٧ . وكان البحرى — كما أسلفنا — يُعدُّ شاعره الرسمى وشاعر الخلفاء من بعده ، وأثر الحادث فى نفسه تأثيراً عميقاً ، كما أثر فى زوس كثيرين من الرعية ، وكان لا يزال للفرس حزب يأبى لما آلت إليه أمور الخلافة ، ويأبى معه كثير من أبناء الشعب . وزار البحرى إيوان كسرى الذى بقى من « المدائن عاصمة الفرس » وكانت قد بقيت منه أطلال ، لم يكد يراها البحرى حتى بهره الفن الفارسى ، وسرعان ما ذكر نهضة الفرس بالعصر العباسى الأول وتشبيدهم لحضارته ومدنيته ، مما جعله ينوه بمجدهم الحضارى الثالث ، حتى ليكاد يرفعهم على العرب ، لوعةً مما آلت إليه شئون الحكم والحضارة فى عهد الترك ، على نحو ما يلقانا فى قصيدته السينية المشهورة :

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يَدْنُسُ نَفْسِي وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدًّا كُلِّ جَبْسٍ

والجدا : العطاء . والجبس : اللثيم . وقد مضى يتحدث عن مدينة الفرس ورفاهة عيشهم وما كانوا فيه من نعيم وعن اتساع دولتهم التى كانت تمتد من باب الأبواب على بحر قزوين إلى جبال أرمينية . وكانت قد نُقِشت على أطلال الإيوان رسوم ونقوش لمعركة عنيفة بين الفرس بقيادة كسرى والبيزنطيين ، حدثت بأنطاكية سنة ٥٤٠ للميلاد ، فنقل مشهدها نقلاً بارعاً إلى سنيته ، مصوراً كيف استحال قصر الإيوان وما كان يزخر به من أدوات الترف وأسباب النعيم إلى قبر ضخم للحضارة الفارسية ، وبعبارة أخرى كيف استحالت الأعراس التى كانت قائمة فيه — كما يقول — إلى ماتم . وهذا المديح للفرس وحضارتهم إنما هو مديح سياسى ، ينتصر فيه البحرى للفرس الذين أдал منهم الترك ولحزبهم الذى كان لا يزال له أنصار كثيرون فى بغداد وغير بغداد ، فى الظاهر مديح وفى الواقع شعر سياسى يواجه مشكلة قائمة هى مشكلة استيلاء الترك على قصر الخلافة وعلى الحكم والسلطان كله ، والبحرى يبيِّن فى تضاعيف ذلك همومه وهموم أمثاله من الرعية لمقتل الخليفة بأيدي جنده وحماته من أعوانه .

وكان الشعب يطرب طرباً لا حدَّ له بانتصارات قواد جيوشه العظام ، وكان الشعراء حيثئذ أشبه بالمراسلين الحربيين لعصرنا ، فهم ما يزالون يوردون على مسامع الشعب أخبار معاركهم وما يذيقون الأعداء من بأس شديد ، مصورين ذلك فى مدائح

طنانة لهم ، يمسّدون فيها المعارك ، حتى لتغدو مصدراً مهماً من مصادر تاريخنا الحربي ، بل إنها لتتفوق على المصادر التاريخية الخالصة ، لأن هذه تحكى التاريخ الماضى على ألسنة رواة ، أما مدائح القواد فتحكى التاريخ الحاضر ، لأن الشاعر يصور فيها ما رأى وشاهد ببصره . وكثيراً ما ترك الكتب التاريخية بعض التفاصيل وتتلافها قصائد المديح الحربي إن صح هذا التعبير ، بل لقد ترك تلك الكتب عارك عظيمة ، أبلى فيها قواد العرب وجيوشهم بلاء عظيماً ، وخير مثل لذلك معركة بحرية حدثت في أول خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة بين الأسطول العربي بقيادة أحمد بن دينار وبين الأسطول البيزنطى في البحر المتوسط ، فلإن كتب التاريخ لم تذكر عنها أى شيء . بينما صورها البحرى تصويراً رائعاً في قصيدة مدح بها القائد العربي العظيم . واصفاً كيف اتجه بأسطوله نحو بيزنطة باحثاً عن أسطول البيزنطيين ، وما زال يبحث عنه حتى التقى به ، وأدار معركة دمر فيها الأسطول البيزنطى تدميراً نهائياً . ومن عجب أن الكتب التاريخية البيزنطية سجلت هذه المعركة باكية مولولة ، بينما لم يسجلها المؤرخون عندنا ، وأولا أن البحرى سجلها في مدحته لابن دينار ما عرفناها ، وقد بلغ الذروة في نقل مشهد المعركة ، ومن قوله فيها يصور زحف ابن دينار بمركبه « الميمون » ومن حوله جنوده مصطفىين على مراكبهم ، يوجهون قذائفهم النارية إلى مراكب الأسطول البيزنطى ، حتى غرقت في اليمّ وغرق جنودها إلى غير مآب :

غدت على « الميمون » صُبْحاً وإنما	غدا المُرْكَبُ الميمونُ تحت المظفرِ
وحولك رُكَّابون للهول عاقروا	كثوس الردى من دارعين وحُسر
صدمت بهم صُهبَ العنانين دونهم	ضرابُ كايقاد اللظى المتسعرِ
يسوقون أسطولا كأن سفينه	سحائبُ صيفٍ من جهامٍ ومُنْطَرِ
تقاربُ من زخفيهم فكأنما	تؤلّف من أعناق وخشٍ منقرِ
فمارمت حتى أجلت الحرب عن طلي	مقطعة فيهم وهام مطيرِ

وواضح أنه يقول إن جنود البحر كانوا مدرّبين على القتال فيه تدريباً جيداً :
الشمر وطوايعه

الدارعين منهم وغير الدارعين . وسرعان ما صدم بهم الروم صُهْبُ العثانين ، أو بعبارة أخرى شُقْرُ اللحى ، مصوبين عليهم قذائفهم المحرقة . وما كان أشبه سفن الأعداء بسحب الصيف الممطرة وغير الممطرة ، سحب سرعان ما تبددت ، إذ تقارب الزحفان والتحما وكأنما ندانت وحوش منفرة أو نافرة . وما رام ابن دينار عن المعركة أو زال عنها حتى سحق الأسطول البيزنطى سحقاً وبيلاً . وطُلَّى القوم أو أعناقهم تتقطع ورءوسهم تتطاير كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً . وهذه الأبيات إنما هى قطعة صغيرة فى وصف تلك المعركة الباسلة من رائية البحرى ، التى تُعد بحق وثيقة تاريخية مهمة .

وتلقانا قصيدة فى نحو أربعمائة بيت لابن المعتز ، فى سيرة الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) . صديقه الحميم بطل معارك الزنج الذى قضى عليهم مع أبيه الموفق قضاء مبرماً . وكان قد رد إلى الخلافة اعتبارها ، وأحمد جميع الثورات وعاشت الرعية فى أمن ورفاهيه . والسيرة مديح عاطر للمعتضد ، وبيان لاستقرار الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وما ساد البلاد من العدل فى زمنه ، ونرى ابن المعتز يقارن فيها مقارنات واسعة بين عهده وبين اضطراب الأمور قبله واختلال الحكم وعبث الترك بالخلفاء يخلعونهم ويسفكون دماءهم وينهبون خزائن الدولة :

كذلك حتى أفقسروا الخلافة وعودوها الرُغْبَ والمخافة

ويذكر ما أنزل المعتضد بالوزير أبى الصقر إسماعيل بن بلبل من نكال لطغيانه وظلمه للرعية وإفككه وبهتانه ، ويصور كيف كان جنوده يذيقون الرعية مظالم ثقيلة ، وكيف كانوا يبتزون أموال التجار أصحاب التجارات العريضة ، حين يتعاملون معهم حتى ليدعون عليهم أن للسلطان عندكم ودائع ينبغى أن يؤدوها كذباً عليهم وافتراء ، وإذا حاول تاجر مراجعتهم أنزلوا به عقاباً أليماً :

حتى إذا ملَّ الحياة وضَجِرَ وقال : ليت المال جَمْعاً فى سَقَرٍ

أعطاهم ما طلبوا فأُطْلِقَا يستعمل المشى ويمشى العنقا

وسفر : جهنم . والعنق : مشى سريع . وكأنه يخاف أن يردوه إلى التعذيب والتنكيل تنكيلاً أليماً ، فهو يطير مسرعاً . وكان مَنْ يرث عن أبيه مالا كثيراً ، يحاولون بكل وسيلة الاستيلاء على ميراثه ، إذ يطلبون منه إثبات نسبه من أبيه ، وما يزالون يلكمونه ويصفعونه ويلقون به في غياهب السجون حتى يعطيهم مالا وفيرا :

وَأَمْرُفُوا فِي لَكُمْ وَدَفَعِهِ وَانْطَلَقَتْ أَكْفُهُمْ فِي صَفْعِهِ
وَلَمْ يَزَلْ فِي أَضْيَقِ الْحُبُوسِ حَتَّى رَى إِلَيْهِمْ بِالْكَيْسِ

وكان عمال الحراج والضرائب يصيرون على رؤوس الناس أهوالاً من العذاب لاستخراج الأموال التي يفرضونها عليهم ، في غير رحمة ولا شفقة ، بل في قسوة ما بعدها قسوة ، فهم يضعون في أيديهم وأرجلهم السلاسل والأغلال ، وهم يزججون بهم في السجون ، وما يزالون يضربونهم ويركلونهم ويعذبونهم صنوفاً من العذاب :

فَكَمْ وَكَمْ مِنْ رَجُلٍ نَبِيلٍ ذِي هَيْبَةٍ وَمَرْكَبٍ جَلِيلٍ
رَأَيْتَهُ يُخْمَلُ بِالْأَعْوَانِ إِلَى الْحُبُوسِ وَإِلَى الدِّيَوَانِ
وَجَعَلُوا فِي يَدِهِ حَبَالًا مِنْ قَنْبٍ يَقْطَعُ الْأَوْصَالَ
وَعَلَّقُوهُ فِي عُرَى الْجِدَارِ كَأَنَّهُ بَرَادَةٌ فِي الدَّارِ
وَصَفَّقُوا قَفَاهُ صَفْقَ الطَّبْلِ نَضْبًا بِعَيْنِ شَامِتٍ وَخِلٍّ

ويذكر ابن المعتز أنهم كانوا لا يزالون يقلبون غريمهم في هذه الأهوال ، حتى يتوصل إليهم أن يعرضوه على التجار ، لعل منهم من يقرضه بعض ماله أو من يشتري منه بعض عقاره ، ويأتيه المرابون ، فيقرضونه بالاتفاق مع عمال الحراج والضرائب واحداً بعشرة ، ويكتبون عليه صكاً بأنه باع ضيعته أو عقاره ، وبذلك يخلص من هذا التعذيب الذي لا يطاق . وكأنتا أصبحنا بلزاء لصوص ومختلسين وقطاع طرق ، وغابت قوانين الشريعة الإسلامية كلها من الحكم . وابن المعتز بذلك يعطينا وثائق خطيرة لحياة الشعب في بغداد قبل حكم المعتضد ، ومعروف أن

حياة الناس بعده لم تلبث أن عادت إلى هذه الصور البشعة من الحكم الفاسد الجائر .
والقصيدة حقاً سيرة ومديح ، ولكنها حملت وثائق شعبية خطيرة تصور حكم العباسيين
أو على الأقل كثرتهم في عهد الترك البغيص .

وعلى نحو ما كان المديح يصور الحياة الواقعة ويشارك في السياسة العامة كان
الهجاء مثله لا يبعد عن السياسة ولا عن حياة الناس في بغداد وغير بغداد ، ولذلك
اتصل كثير منه بالخلفاء والوزراء ، لما صور له ابن المعتز من المظالم التي كانت
ترهق الناس ولا تسوى بينهم في مواجهة الحياة واحتمال خطوبها . وكان
المتوكل خاصة يضطهد الشيعة ، وبلغ من اضطهادهم لهم أن أمر بهدم قبر الحسين
بكرّ بلاء وأن يمتنع الناس من زيارته ، مما جعل علي بن بسام يتعرض له بقوله :

تالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثلِهِ هذا لعمرك قبره مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا في قتله فتنبهوه رميمما

وهو هجاء سياسى واضح . وكان ابن بسام أحد أصوات الشعب القوية في
العصر ، فهو ما ينى يتعرض للخلفاء والوزراء بالهجاء اللاذع ، ومن كان يكثر من
هجائهم أبو الصنقر إسماعيل بن بلبل الذي سجل له ابن المعتز كما أسلفنا صفحة
سوداء في قصيدته « سيرة المعتضد » وفيه يقول :

سجدنا للقرود رجاء دنيا حوثها دوننا أيدي القروود
فما نالت أناملنا لشيء عملناه سوى ذلّ السجود

وكان شيعياً أو أحد السنة الشيعة ، فلم يسلم المعتضد من هجائه مع ما اشتهر به
من شدة البطش والتنكيل بخصومه ، وبالمثل لم يكد يسلم وزير من لسانه ، على
نحو ما يلقانا في هجائه للوزير أبي القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب ، من ذلك
أنه انتهر فرصة وفاة ابنه الحسن . فهجا ابنه القاسم الذي أصبح فيما بعد وزيراً
للمعتضد ، مُرحمًا على الحسن مادحاً له ، وهاجياً للقاسم ذاماً ، حتى يغیظه ويغیظ
أباه قائلاً :

قل لأبي القاسم المرجى قابلك الدهرُ بالعجائب
مات لك ابنٌ وكان زَيْنًا وعاش ذو الشَّين والمعائب
حياةٌ هذا كموت هذا فلست تخلو من المصائب

ودار البيت الأخير على ألسنة الصغار والكبار في بغداد ، وسمعه المعتضد ، فنصح وزيره القاسم أن يقطع لسانه عنه بتوظيفه في عمل والبر به ، حتى لا يذكره بشر ، فولاه بريد إحدى البلدان . وتوفي المعتضد وخلفه ابنه المكتفي ، واتخذ وزيراً له العباس بن الحسن ، فتولَّى مغاضباً له ، ونظم فيه أشعاراً كثيرة يهجو فيها بظلمه وعسفه من مثل قوله :

تحمل أوزار البرية كلَّها وزيرٌ بظلم العالمين يجاهرُ

وكان العباس يتألق تألقاً شديداً في ملابسه ، فأثاه من هذا الجانب ، عائباً عليه عيباً شديداً تزينه ، حتى ليعده جارية حمقاء ما تزال تُعنى بزيتها وهيئتها ، يقول :

وزارة العباس من نحسِّها تستقلع الدولة من أسِّها
شبهته لما بدا مُقبِلاً في حُلٍّ يُخجلُ من لبسها
جارية حمقاء قد فصَّلت ثيابَ مولاها على نفسها

ويدخل بعد المكتفي عصر المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) وفيه فسد الحكم على أيدي وزرائه فساداً لا حدَّ له ، ونرى ابن بسام ينزل بسياط شعره على ظهورهم وخاصة على ظهر الخاقاني الذي اشتهر بأخذه للرشوة من ولاته ، وبلغ من سوء سيرته أنه كان يبيع الولايات مراراً غير مراعاة ذمة ولا عهداً للرعية ، وية ال إنه ولَّى على الكوفة في يوم واحد من صباحه إلى مسائه تسعة عشر والياً ، كل منهم دفع له رشوة حسب مقدراته ، وفيه يقول بعض الشعراء :

وزيرٌ لا يملُ من الرِّقاعة بولٌ ثم يعزلُ بعد ساعه

إذا أهلُ الرُّشَا صاروا إليه فأخْطَى القومَ أوفرُّهم بِضَاعه

وبذلك انتكست أداة الحكم حينئذ انتكاساً شديداً ، وهو انتكاس كان الشعب يئن منه أئيناً متصلاً ، لأنه هو الذي كان يقع عليه غرمة وتقع جنائياته وظلمه ، وكان ما يزال شعراؤه يصيحون في وجوه أمثال الخاقاني ، ولكن كأنما غاض الحياء من وجوههم ، فأصبحوا لصوصاً يسرقون وينهبون دون رادع أوزاجر .

وكان بجانب هذا الهجاء السياسي هجاء اجتماعي كثير ، أكثر فيه الشعراء من ذم العيوب الاجتماعية ، وأيضاً العيوب الفردية . وكان بعض هذه العيوب يسوء النفوس ويحزنها ، وبعضها يملؤها سخرية ، وقد يدفع إلى الضحك ، وأكبر أصحاب هذا النوع من الهجاء الفردي والاجتماعي ابن الرومي ، إذ كان يعرف كيف يسخر من مهجويه ، وكيف يشوه صورهم تشويهاً يمسخهم ، ويضحك عليهم أهل بغداد ضحكاً عريضاً ، على شاكلة قوله في وصف بخيل :

يقتَر عيسى على نفسه وليس ببساقٍ ولا خالِدٍ
فلو يستطيع لتقتيره تنفّس من منخِرٍ واحدٍ

فتفتحة أنف واحدة تسدُّ حاجته من التنفس ، ولو رآها حقاً تغنيه عن أخذها ما انتفع بها إبقاء عليها ، حرصاً ذمياً يتصف به وشحاً وتقتيراً . وكان لا يبارى في النقاط العيوب الصوتية والجسدية وتكبيرها على نحو ما نرى في عصرنا عند أصحاب الصور الكاريكاتورية إذ يستغلون دقائق العيوب الجسدية في الوجوه ، ويكبرونها ، فتستحيل مضحكة ، كما تستحيل معبرة عن المعالم الخلقية لصاحبها تعبيراً قوياً ، من ذلك أنه استمع إلى مغن قبيح الصوت ، وكأنما أراد أن يخرسه إلى الأبد ، فصوّره في صورة بغل لطحّان ما يني يحرّك فكّيه في أكل غذائه من الفول وغير الفول ، يقول :

ونحسب العينَ فكّيه إذا اختلفا عند التلغيم فكّيَ بَغْلٍ طَحَّانٍ

وكان يحسُّ إيداءاً شديداً إزاء اللحي المسترسلة حين تزيد في حجمها زيادة فاحشة عن قدرها الطبيعي ، فيها جوهاً ويهجو أصحابها هجاءاً مضحكاً ضحكاً

عريضاً ، مطبلاً فيه أحياناً ، وأحياناً يعمد إلى أبيات قصيرة تلذع لذعاً ، من مثل قوله :

ولحيةٍ يحملها مائقٌ شبه الشراعين إذا أشرعا
لوقابل الريح بها مرةً لم ينبعث من خطوه إضبعا
أوغاص في البحر بها غوصةً صاد بها حيتانه أجمعا

فلحية هذا الرجل الأحمق بجانبها المستعرضين كشراعين ، ولكنهما لا يساعدها مع الريح على التنقل كما يساعد الشراعان السفينة ، بل هما يثقلانه حين تقابله الريح ، فلا يستطيع التحرك ، بل إن هذه اللحية العريضة أشبه ما تكون - في عين ابن الرومي - بشبكة كبيرة ، وأولى بصاحبها أن لا يعترض بها الناس في الطريق ، بل يسقط بها في البحر ليصيد حيتانه التي يعزّ على الشباك صيدها . ويقول في صاحب لحية أخرى .

إن تطلّ لحيةً عليك وتعرضُ فالمخالي معروفةٌ للحمير
علّق الله في عذاريتك مخلّا ة ولكنها بغير شعير
لحيةً أهملت فطالت وفاضتُ فإليها تشير كف المشير
ما رأتها عينٌ امرئٍ ومارأتها قطُّ إلا أهلٌ بالتكبير

فما أشبه هذه اللحية - في عين ابن الرومي - بمخللة حمار خالية الوفاض من الشعير غذاء الحمار ، وقد طالّت ، حتى أصبحت فرجة للغادين والرائحين ببغداد ، وحتى ليشيرون إليها بأكفهم وأصابعهم متعجبين من هذه اللحية الغريبة ، بل إن كل من يراها ليصبح : الله أكبر ! تعجباً واستنكاراً واستغراباً ماثله استغراب . وكان له جار أحذب يكثّر من الجلوس بجوار باب داره ، وكان إذا أخذ في الخروج ورآه ارتدّ إلى داره فرعاً ، مفضياً إلى تشاؤم شديد ، طبيعة رُكبت فيه ، ونقص طبيعة التشاؤم ، إذ بلغ منها مبلغاً لم يُعرّف لأحد من معاصريه . فكان إذ رأى الأحذب ، وهويهم بالخروج

من الباب ، عاد فأغلقه عليه ، ولم يخرج من داره طوال نهاره ، وانتقم منه لنفسه شر انتقام ، بقوله فيه يصف حـدبته :

قَصُرَتْ أَخَادِعُهُ وَغَابَ قَدَالُهُ فكَأَنَّهُ مَتَرِبُصٌّ أَنْ يُصْفَعَا
وَكَاثِمًا صُفِيعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً وَأَحْسَ ثَانِيَةً لَهَا فَتَجْمَعَا

فجعلله مصفوعا طوال الدهر ، يحاول أن يتقى صفعه بجمع قفاه إلى ظهره جمعا مستمرا متصلا ، وكانت العامة في بغداد ما تزال تنتظر من ابن الروي هذه الأهاجي التي كانت تدور على أفواهها دوران النواذر ، لتبتسم أحيانا ولتضحك ضحكا عريضا أحيانا أخرى ، محاولة أن تتخفف بذلك من أنفاس الحياة وأعبائها ومظالمها التي مرت بنا ، أو قل هاربة من ذلك كله إلى ظلال الضحك الوارفة :

ولم يكن يقل عن ابن الروي سخرية وإضحاكاً في هجائه إسماعيل بن إبراهيم الحمدوني ، وكان إذا سلط أهاجيه على أحد لم يبق فيه باقية ، إذ كان ما يزال يقذف بأبيات سامة تؤذي من تسقط عليه إبداء شديداً . ويأويل من كان يجعل مكافأته له في المديح قليلة أو يهديه هدية لا تروقه ، فإنه كان يسـلّ عليه لسانه بأبيات ساخرة مضحكة ، من ذلك أن ممدوحه أحمد بن حرب المهلبى أهده طيلساناً (ثوباً) أخضر لم يرقه ، فضى ينظم في وصف هذا الطيلسان البالى ، كما يزعم ، مقطوعات متوالية ، وكأما فرغ من مقطوعة نظم أخرى ، حتى تمت له خمسون مقطوعة ، ذاعت في بغداد على ألسنة الصبية والشباب والأدباء وتحاطفتها الأندية والمحافل ، من مثل قوله :

يَابْنَ حَرْبٍ كَسَوْنِي طَيْلَسَانًا مَلٌّ مِنْ صُحْبَةِ الزَّمَانِ وَصَدًّا
إِنْ تَنَفَّسْتُ فِيهِ يَنْشَقُّ شَقًّا أَوْ تَنَحَّخْتُ فِيهِ يَنْقُدُّ قَدًّا
طَالَ تَرْدَادُهُ إِلَى الرَّقْرِ حَتَّى لَوْ بَعَثَنَاهُ وَحْدَهُ لَتَهْدَى

فالطيلسان كلّ ومَلٍّ من طول صحبته للزمان ، حتى أصبح لا يستطيع بقاء ، وإن أى حركة فيه لشقه شقاً ، وطالما ظهرت فيه شقوق وخروق ، وهو ما يزال ذاهباً به لذكّان الرِّفَا راجعاً منه ، حتى لو بعث بالطيلسان إليه لعرف الطريق من طول تردده فيه ، ويقول :

وهبتَ لنا ابنَ حَرْبٍ طَيْلَسَانًا يزيدُ المرءَ ذا الضَّعْفِ اتِّضاعًا
ولستَ أَشْكُ أنْ قدْ كانَ قَدَمًا لنوحٍ في مَسْفِينته شِراعًا

فهو طيلسان عتيق مغرق في العتق والقدم ، بل هو نفس شراع سفينة نوح التي استوت على جبل الجودي . ويزعم الحمدوني أنه بلغ من الوضاعة حدًا يتجاوز كل حد ، حتى ليزيد الوضع وضاعة وخساسة ما بعدها خساسة . وكان يعرف كيف يختار الأبيات التي تصور التياحه إزاء تداعيه على جسده ، يقتبسها من شعراء الحب السابقين ، وبالمثل كان يختار كثيرًا من الألفاظ القرآنية كقوله :

فيما كسانيه ابنُ حَرْبٍ مُعْتَبِرٌ فانظُرْ إليه ، فإنه (إحدى الكُبرِ)
قد كان أبيض ثم ما زلنا به نرفوه حتى اسودَّ من صَدَلِ الإبرِ

والكُبرِ : المحرمات الكبيرة ، كأن الطيلسان جريمة كبرى ، وما زالت الإبر ترفوه حتى لم يعد فيه مكان إلا ورفته ، بل إلا واسودَّ من صَدَلِ الإبر . وحدث أن شخصًا يسمى سعيد بن أحمد بن خوسنداذ أهداه في عيد الأضحى شاة هزيلة نحيلة ، فسأته الهدية ، ومضى ينظم في وصفها مقطوعات كثيرة ، تندرفها نوادرشتي ، تارة يصورُ جوعها ، وتارة ثانية يصور بُوسها وما تشقى به من حرمان العلف ، من مثل قوله المكتظ بالفكاهة والسخرية :

لَسَمِيحٌ شُوَيْهَةٌ سَلَّهَا الضُّسْرُ وَالْعَجْفُ
قد تَغَنَّتْ وَأَبْصَرَتْ رجلاً حاملاً عَلفُ
بَائٍ مِنْ بَكْفِهِ بُرءٌ مَائٍ مِنَ الدَّنْفِ
فَأَنَاهَا مَطْمَعًا وَأَتَتْهُ لَتَعْتَلِفُ
فَتَوَلَّى فَأَقْبَلَتْ تَتَغَنَّى مِنَ الْأَسْفِ
لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ وَقَفٌ عَذَّبَ الْقَلْبَ وَانْصَرَفُ

فهى ليست شاة ، بل مصغرة شاة أو شبه شاة أو خيال شاة لما أصابها من الهزال والفضن الذي اعتراها من طول صبايتها بالعلف ولطفها على رؤيته ، وهي لا تراه ،

ولا تزال تمناه ، وإذا رجل يوما يحمل علفاً ، وتراه فتتضرع إليه أن يشفيها من جوعها وعذابها ، ويطعمها منه ولو قليلاً . وأطعمها ، وسرعان ما انصرف عنها ، فأنت وغنت أسفاً وتمنت لو أنها لم تره ، ولو أنه لم يقف ، فقد آلمها ألماً شديداً وانصرف . ويقول فيها .

مَرَّتْ عَلَى عَلْفٍ فَقَامَتْ لَمْ تَسِرْ عَنْهُ وَغَنَّتْ وَالْمَدَامُ تَسْجُمُ
وَقَفَ الْهَوَىٰ بِحَيْثُ أَنْتِ فَلَيْسَ لِي مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدِّمٌ
فهي حين رأت علفاً تسمرت بجانب محبوبها ولم تبرح مكانها ، ومضت تغني محزونة ودموعها الغزيرة تسيل على خدودها . والبيت الثاني من قطعة غزلية مشهورة لأبي الشَّيْص أحد شعراء العصر العباسي الأول ويروي الرواة أنه أنشدتها أبا نواس فأعجب بها إعجاباً شديداً . وكان الناس في بغداد ما يزالون ينتظرون من الحمدوني مقطوعات في شاة سعيد بن أحمد وطيلسان ابن حرب ، صاحكين مهللين ، وبالمثل كانوا ينتظرون أهاجي ابن الرومي الكاريكاتورية ، وكأنما كانت أهاجي الشاعرين تقوم منهم مقام المسارح الهزلية في عصرنا وما تقدمه من شخوص فكهة .

والرثاء بدوره كان منه الرثاء السياسي ، وكان منه الرثاء الاجتماعي ، ومن مرأى النوع الأول مراثية البحري الرائية للمتوكل حين سفح دمه الأتراك في مؤامرة اشترك معهم فيها ابنه وولى عهده المنتصر . وثرى البحري في المراثية ثائراً ثورة عنيفة على ولى العهد ، مؤلماً الرعية عليه ، مطالباً بثأر المتوكل ، متعجباً أشد العجب من اشترك ابنه في دمه ، داعياً الله أن لا يجعله يتمتع بثرائه واعتلائه عرش الخلافة من بعده ، يقول متوجهاً بخطابه إلى المتوكل :

حَرَامٌ عَلَى الرَّاحِ بَعْدَكَ أَوْ أَرَى دَمًا بَدَمٍ يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ مَائِرَةٌ
أَكَانَ وَلِيُّ الْعَهْدِ أَضْمَرَ غَدَرَةً فَمَنْ عَجِبَ أَنْ وَلَّى الْعَهْدَ غَادِرُهُ
فَلَا مُلَى الْبَاقِي تَرَاثَ الَّذِي مَضَى وَلَا حَمَلَتْ ذَاكَ الدُّعَاءَ مَنَابِرُهُ
ومآثره : سائله . ومُلَى : متع . والمراثية سياسية خالصة ، فالبحري يقف فيها مع أنصار الخليفة المقتول من الفرس والعرب ومن بعض الترك مطالباً بسفح دماء القتاتلين للمتوكل ، دماً بدم يُسْفَكُ عَلَى الْأَرْضِ . ولا تقل عن هذه المراثية ثورة وعنفاً مراثية ابن الرومي للبصرة حين أغار عليها صاحب الزنج بمجموعه الغفيرة

في غارته المشهورة لسنة ٢٥٧ للهجرة إذ دمرها تدميراً مشعلًا بها الحرائق ، منزلاً بها النهب والسلب ، مسرفاً في قتل أهلها ، حتى قيل إنه قتل منها ثلاثمائة ألف بين رجل وامرأة وشيخ وطفل ، واختفى من بقي في الدور والخرائب ، وعت مجاعة مخيفة . وطارت الأنباء بذلك إلى العاصمة حينئذ في سامراء وإلى بغداد ، وفزع أهلها والشعراء لهذه الفاجعة المروعة . وصاح ابن الرومي في الناس محرضاً لهم على الانضمام إلى جيش القائد العظيم الموفق لقتال الزنج وضربهم الضربات القاصمة على نحو ما يلقانا في ميميته :

ذَاذَ عَنْ مُقْتَلَى لَذِيذِ الْمَنَامِ شُغِّلَهَا عَنْهُ بِالْدمُوعِ السَّجَامِ

وهو يرسم في فواتحها ما أنزل الزنج بالبصرة من العسف والخسف وإشعالهم النيران بها حتى أحالوا قصورها الأنيقة تلالاً ورماداً ، وانتهاكهم لمحارم الإسلام وقتلهم للألوف حتى ملأوا الشوارع بالحثث والرءوس والأيدى والأرجل المبتورة وسيبهم للنساء الحرائر وجرحن حاسرات الوجوه ممزقات الثياب ويبعهن بيع الإماء . ويستصرخ ابن الرومي الشعب في بغداد وغير بغداد لإغاثة البصرة ونجدها واستنقاذها من الزنج وفظائعهم ، ويرفع للناس شعارات الجهاد الديني ، ويناديهم باسم الإسلام والرسول الكريم أن يردوا عدوان الزنج الأثيم ، ويستنفرهم في قوة ليكيلوا لهم الصاع صاعين على ما ارتكبوا في البصرة من آثام يشيب لها الولدان ، ويستجيب أهل بغداد والعراق لصراخ ابن الرومي وسحقون الزنج سحقاً لا تقوم لهم بعده قائمة . ومن المرائي السياسية المهمة التي ذاعت على ألسنة الشعب وأبنائه مرثية رمزية ، هي مرثية ابن العلاف الضرير لـهـر ، وكانت تنعقد بينه وبين ابن المعتز صداقة وثيقة ، وحدث أن تولى المقتدر الخلافة لسنة ٢٩٥ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ولا يكاد يدور عام ، حتى يمتنع كثيرون لخلافة هذا الصبي ، فيبايعوا ابن المعتز ، ولا يكاد يمضي عليه يوم وليلة حتى ينتفض الأمر عليه ، فيقتل هو وبعض من بايعوه وتعود الخلافة إلى المقتدر . ووجم الشعراء ، فلم يرثوا ابن المعتز الشاعر الأديب العالم ، وكأنهم خافوا على أنفسهم القتل وأن يصيروا إلى ما صار إليه . ومصادف أن كان لابن العلاف هر يألفه ويأنس له ، وكان قد اعتاد أن يدخل أبراج الحمام عند الجحيران ويأكل أفراخها ، فأمسك به بعض أصحابها

وذبحوه ، وحزن عليه ابن العلاف حزناً شديداً ، فرثاه رثاء مليئاً بالأسى ، وكأنه يرى عزيزاً نكبه بعض الخلفاء ، ولذلك قيل إنه كنى بالهرعن ابن المعتز ، خوفاً على نفسه من غضب المقتدر وحواشيه من الترك إن هو صرَّح بالاسم الحقيقي . ودارت المروية على الألسنة ، وتناقل الناس عنها قصة شاعت بينهم هي أنه كانت لعلی بن عيسى أحد وزراء المقتدر جارية وقع في شباك غرامها غلام لابن العلاف ، فافتضح أمرهما ، وقتلاً ، فبكى ابن العلاف غلامه وكنى عنه بالهر . والمروية تتجاوز ستين بيتاً وفيها يقول :

يا هـرُّ فارقَتنا ولم تُعَدِ	وكنْتَ مِنَّا بمنزل الولدِ
فكيف ننفكُ عن هـواك وقد	كنت لنا عُدَّةً من العُدَدِ
تطرد عنا الأذى وتحرسنا	بالغيب من حَيَّةٍ ومن جُرَدِ
حتى اعتقدت الأذى لجيرتنا	ولم تكن للأذى بِمُعْتَقِدِ
وحمت حول الرَّدَى بِظلمهم	ومن يَحُمُّ حول حَوْضِهِ يَرِدِ
صادوك غيظاً عليك وانتقموا	منك وزادوا ، ومن يَصِدُّ يَصِدِ

والمروية تموج بلوعة شديدة لموت الحر مقتولاً ، مع التأمل في الموت وحقائق الحياة ، وهي تكتظ حقاً بأحاسيس الحزن ومشاعره ، مما جعل الناس يعتقدون أنها ليست في هر ، وإنما هي إما في صديق حميم هو ابن المعتز ، وإما في ابن عزيز للشاعر .

ومن هذا الرثاء السياسي رثاء الشيعة للحسين وأئمتهم المقتولين ، وهو في ظاهره رثاء وفي حقيقته استنفار وصراخ واستنجد بأفراد الأمة كي يردوا الخلافة من العباسيين إلى العلويين مستحقيها الذين طالما سُفكت دماؤهم الزكية ، مع أنهم ورثة الخلافة الشرعيين الذين إن مُكِّنُوا - في رأيهم - منها ملئوا الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً . ومن أجل ذلك ظلت ماتم الحسين قائمة ، وكان لها موسم كل عام في يوم عاشوراء يجتمع شعراء الشيعة من كل فجٍّ بكرِّ بلاء ويلقون فيها مراثيهم السياسية المؤثرة ، ومن كانوا يكثرون من هذه المراثي الملتاعة الصنوبري شاعر الطبيعة المعروف ، وهو في كثير من مراثيه يقف طويلاً عند السيرة العطرة للرسول عليه السلام جد الحسين ، ليعمق

الحزن عليه في نفوس سامعيه ، كما يصور سيرة أبيه على بن أبي طالب بطل المغازي النبوية ، ثم يندب الحسين ندباً مؤثراً بمثل قوله :

يومَ الحسين هَرَقَتْ دَمَ	عَ الأرضِ بل دمع السماء
يومَ الحسين تَرَكْتَ بَا	بَ العِزِّ مهجوراً الفِناء
يا كَرْبَلاءَ خُلِقْتَ مِن	كَرْبِ عَلِيٍّ وَمِنَ بَلاءِ
نَفْسِي فِدَاءِ الْمُضْطَلِّ	نَارِ الوَغَى أَيْ اصطِلاءِ
مَنْعُوهُ طَعْمَ المَاءِ لَا	وَجَدُوا لِمَاءِ طَعْمَ ماءِ
مَنْ لَطَّيْرِيحِ الشُّلُو عُرْ	يَانَا مُخْلِئاً بِالْعَرَاءِ
مَنْ لِّلْمَحْنَطِ بِالتُّرَا	بِ وَلِلْمَغْسَلِ بِالدَّمَاءِ

ويردّد الصنوبري دائماً أن الحسين قُتل بالقرب من الفرات ، وهو ظامئ متلهف على جرعة ماء ، وسيوف قومه تعلق من دمه الزكي ودم الشباب الطاهر من أهله الذين استماتوا في الدفاع عنه ، حتى الذّماء الأخير . وكانت تشبُّ - من حين إلى حين - ثورة للشيعَة بقيادة أحد العلويين ، ويكون حثفه في أمنيته ، فيندبه الشعراء ويكونه بدموع غزار ، وقد يظل مأتمه قائماً مدة طويلة . ولعل أكبر مأتم لعلوي شهده هذا العصر مأتم يحيى بن عمر العلوي الذي ثار بالكوفة ضد الدولة لسنة ٢٥٠ للهجرة ، فجردت له جيشاً كثيفاً ، وسرعان ما اندحر جيش يحيى ، وحرّ صريعاً في ساحة المعركة ، فنصبت له الكوفة وشيعة العراق مأتماً كبيراً فاح فيه الشعراء نواحاً كثيراً ، وفي مقدمتهم ابن الرومي بقصيدته الجيمية المؤثرة ، وفيها يحبيه قائلاً :

سَلامٌ وَرَيْحَانٌ وَرَوْحٌ وَرَحْمَةٌ	عَلَيْكَ وَمَمْدُودٌ مِنَ الظُّلِّ مَسْجَسَجٌ
وَيَا أَسْنَى أَنْ لَا يَرُدَّ نَحِيَّةٌ	سِوَى أَرْجٍ مِنْ طَيْبِ رَمْسِكَ يَأْرَجُ
أَلَا إِنَّمَا نَاحَ الحِمَائِمُ بَعْدَمَا	ثَوِيَتْ وَكَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ تَهْزِجُ

وسجسج : معتدل بين الحر والبرد . وقد مضى ابن الرومي ييكى في القصيدة مع يحيى أئمة العلويين المقتولين منذ الحسين شهيدهم الأول بكربلاء ،

وعَنُفَ بالعباسيين وقائد جيشهم المنتصر محمد بن عبد الله بن طاهر عنفاً شديداً ،
وتوعدهم جميعاً بثائر علوى جديد يرد الأمر إلى نصابه . والمرثية لذلك مرثية سياسية
واضحة . ورثى يحيى بمرث أخرى كثيرة ، من أهمها مرثية أحمد بن أبي طاهر
المعروف بابن طيّفور صاحب تاريخ بغداد ، وفيها يقول :

سلامٌ على الإسلام فهو مودّع إذا ما مضى آلُ النبي فودّعوا
فقدنا العلا والمجد عند افتقارهم وأضحت عروشُ المكرّمات تَصْغَعُ
لقد أقفرت دارُ النبي محمّدٍ من الدين والإسلام فالدارُ بَلَقَعُ
وقُتِلَ آلُ المصطفى في خلالها وبُدِّدَ شَمْلُ منهم ليس يُجْمَعُ

والرثاء الاجتماعي في العصر كثير كثيرة مفرطة ، وطبيعة الرثاء تجعله اجتماعياً ،
مهما يكن متصلاً بفرد من الأفراد ، لأنه يتحدث عن الحياة والموت ، وفراق الأبناء
والأهل والأصدقاء والأعلام النابهين ، وكل ذلك يشترك فيه أفراد المجتمع . وقد
اشتهر في العصر ابن الرومي برثائه لابنه الأوسط الذي اختطفه منه الموت ، وهو
لا يزال في المهد صبيّاً ، فحزن عليه أشد الحزن ، وأخذ يبكيه بمثل قوله :

أريحانةَ العَيْنَيْنِ والأنفِ والحِشَا ألا ليت شعري هل تغيّرتَ عن عهدِي
كأنّي ما استمتعتُ منك بِضَمَّةٍ ولا شَمَّةٍ في ملعبٍ لك أو مَهْدٍ

ويكثر رثاء الأعلام الممتازين في جميع فروع العلم والفن ، مما يعكس صورة
العصر في بعض جوانبها ، كما يكثر رثاء الخلفاء والوزراء وقادة الحروب العظام ،
وللبحتري مرثية بديعة يرثى بها جماعة من بني حُمَيْد الطوسي ، سقطوا في ميادين النضال
بالغور كما سقط جدهم البطل محمد بن حصيد الطوسي الذي مر بنا ذكره في
العصر الماضي ، وفيهم يقول :

قبورٌ بأطرافِ الثُّغور كأنما مواقعُهم منها مواقعُ أنْجَمٍ
مضوا به سُلُودُ المنايا حفيظةً وحفظا لذاك السُّودد المتقدّم
وكلهم أفضى إليه جِمامه أميراً على تدبير جيشٍ عَرَمَرَمٍ

مساعٍ عظامٍ ليس يَبْلَى جديدها وإن بَلَّيْتُ منهم رمائمُ أعظمِ
والمرثية نذب حار لهؤلاء الأبطال الذين بذلوا أرواحهم فداء لوطنهم واستبسلاً
وجهاداً بعد ما أنزلوا بالأعداء من دمار وبعد أن نكلوا بهم ومزقوهم مراراً وتكراراً .

وطبيعي أن يظل للغزل ازدهاره ، إذ يعكس دائماً وجدان الأمة ، وكان يجري
في تيارين : الغزل الصريح والغزل العفيف ، وكان التيار الأول أكثر تدفقاً وحدة ،
بسبب كثرة الجوارى وكثرة دور النخاسة التي كانت تعرض منهن العشرات من كل
جنس : فارسيات وروميات وغير رومات وفارسيات . وقد مضى كثير من الشعراء
يتغزلون فيهن غزلاً صريحاً صادرياً فيه عن غرائزهم النوعية دون أى احتشام . وكان
لا يزال الغزل العفيف ، الذي رأيناه في العصر الماضي عند العباس بن الأحنف ، حياً
حياة خصبة ، فنيارانه كانت لا تزال متقدة في كثير من الصدور . ويخيل إلى الإنسان
كأن الغزل كان الشغل الشاغل لجميع طبقات الأمة ، حتى ليشترك فيه الخلفاء
والأمراء من أمثال المعتز وأخويه المنتصر والمعتمد والراضى بأخرة من العصر وابن
المعتز وكان شاعراً بارعاً ، وله في الغزل كثير من الصور الطريفة من مثل قوله :

يا غُصْنًا إِن هَزَّهْ مَشْيُهُ خَشِيتُ أَنْ يَسْقُطَ رُمَّانُهُ

وقوله

إذا اجتنى وردةً من خدِّها فَمُهُ تَكُونْتُ تحتها أخرى من الخَجَلِ

ويلقانا كثير من الوزراء الذين كانوا يحسنون نظم الشعر وصنع مقطوعات
الغزل ، وفي مقدمتهم الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، وإليه ينسب البيت
المشهور :

ليس يُسْتَحْسَنُ في شرع الهوى عاشقٌ يحسن تأليف الحُجَجِ

وعلى شاكلته سليمان بن ولطب وزير المهتدى ، فله مقطوعات غزلية كثيرة
تدور في الكتب الأدبية . ويكثر الغزلون بين رجال الدولة ورؤساء الدواوين . أما
الشعراء فهم جميعاً — وكانوا يعدون بالعشرات — لهم غزل لا يكاد يُحصى ،

ومن أبيات الغزل التي اشتهرت في العصر ودارت على كل لسان قول علي بن الجهم :

عيونُ المها بين الرصافة والجسرِ جلبنَ الهوى من حيث أذرى ولا أذرى
أعدنَ لي الشوق القديمَ ولم أكن سلوتُ ولكن زِدَن جَمراً إلى جمرِ

وهي صورة رائعة لسهام الحب التي ترسل إلى المحب من كل مكان مكشوف ومستور من حيث يعلم ابن الجهم ومن حيث لا يعلم ، وقد أعدن له جذوة الشوق القديم وزدنها جذوات جديدة ، جعلته يلتاع لوعة ما بعدها لوعة . ومن كانوا يحسنون نظم مقطوعات الغزل إلى أبعد حدّ الحسين بن الضحاك من مثل قوله :

وَصَفَ الْبَدْرُ حُسْنَ وَجْهِكَ حَتَّى . خَلْتُ أَنَى - وَمَا أَرَاكَ - أَرَاكَ
وَإِذَا مَا تَنْفَسُ النَّرْجِسُ الْغُضُّ تَوْهَمْتَهُ نَسِيمَ شَذَاكَ
خُذْعٌ لِلْمَنَى تَعَلَّلَنِي فِيهِ كَ بِإِشْرَاقِ ذَا وَبَهْجَةِ ذَاكَ
لَأَدُومَنَّ يَا حَبِيبِي عَلَى الْو . دَ لِهَذَا وَذَاكَ إِذْ حَكِيَاكَ

والقطعة تصور رهافة الشعور التي عكستها المدنية العباسية في نفوس الناس ، كما تصور دقة الأحاسيس ، فليست صاحبتة هي التي تحكى البلر ، بل هو الذي يحكيها في إشراقه ، وبالمثل لا تحكى النرجس بل هو الذي يحكيها في بهجته وجماله ، وهو لا يودها فحسب ، بل أيضاً يودُّ شبيهيها : النرجس والورد . وكثير من غزل الحسين مادي ، ومع ذلك له قطعة في الحب تخلو أو تكاد تخلو من المادة والحس ، إذ يقول :

إِنَّ مَنْ لَا أَرَى وَلَيْسَ يَرَانِي نُصِبَ عَيْنِي مِمَثْلٌ بِالْأَمَانِي
بَأَنِّي مَنْ ضَمِيرُهُ وَضَمِيرِي أَبْدَأُ بِالْمَغِيبِ يَنْتَجِيَانِ
نَحْنُ شَخْصَانِ إِنْ نَظَرْتَ وَرَوْحَا نَ إِذَا مَا اخْتَبَرْتَ يَمْتَزِجَانِ
فَإِذَا مَا هَمَمْتُ بِالْأَمْرِ أَوْه مَ بِشَيْءٍ بَدَأْتَهُ وَبَدَانِي
كَانَ وَفَقاً مَا كَانَ مِنْهُ وَمَنِي فَكَأَنِّي حَكِيْتُه وَحَكَانِي

خطراتُ الجفون منا سواءً وسواءً تحرك الأبدانِ

وتأثير الفلسفة واضح في القطعة ، وكأنها تصور حباً أفلاطونياً ، فالجويان متحدان كأنهما شخص واحد وروح واحدة ، وإن ظن الناظر إليهما أنهما شخصان وروحان ، فأفكارهما ومشاعرهما وخواطرهما واحدة ، بل حتى حركاتهما وإشارتهما واحدة . والقطعة تصور فكر الأمة العربية في العصر العباسي ، وكيف داخلته انطباعات فلسفية حتى في الحب ومواجهه . ويقول ابن أبي طاهر المعروف باسم ابن طيفور :

حببي حبيبٌ يكتم الناس أنه لنا - حين ترمينا العيون - حبيبٌ
يباعدني في الملتقى وفؤاده - وإن هو أبدي لي البعد - قريبٌ
ويُعْرِض عني والهوى منه مقبلٌ إذا خاف عَيْناً أو أشار رقيبٌ
فتخرسُ منا ألسُن حين نلتقى وتنطقُ منا أعينٌ وقلوبٌ

وهو يصور كتمانَهُ هو وصاحبته الهوى ، فهما يتناكران أمام الناس ، وكل منهما مولعٌ بحب ، مغرمٌ صبايةً وهياماً ، ولا يستطيع إظهار حبه . وهما يتكلفان التحفظ ، حتى لا يفتضح أمرهما ، خوف الرقباء ، فتخرس منهما الألسنة وتنطق العيون بما في الضمير من حب ووجد . ويصور ذلك أبو العباس الناشئ الأكبر قائلاً :

متعاشقان مُكاتمان هَوَاهما قد نام بينهما العتابُ فطابا
يتناقلان اللَّحْظَ من جَفْنَيْهِمَا فكأنما يتدارسان كتابا

فهما يكتمان الهوى ولا يبيحان به خشية الوشاة والرقباء ، غير أنهما يتبادلان اللحظ والنظرة في الحين بعد الحين وكأنما يتناقلان حديثاً صامتاً ، بل لكأنما - كما يقول - يتدارسان كتاباً لا أول لصفحاته ولا آخر ، صفحات تحكى عذابهما في الحب واصطلاهما بنيرانه التي لا تعمد . وللناشئ كثير من الصور الطريفة في الغزل من مثل قوله :

يلوحُ في خلدِهِ وَرَدُّ على زَهْرٍ يعود من حُسْنِهِ غَضًّا إذا قُطِفَا
ويريد بالزهر زهر النرجس الذى يشبه به الشعراء العيون ، وصوّر القبله بأنها
اقتطاف لورد الحدود ، كما صوّرها بأنها تترك في الحدود وراءها من الحمرة ما يعود
بها غَصَّةٌ إلى أول اجتنائها وباكورتها .

ويكثر الغزل في العصر كثرة مفرطة ، وتكثر معه قصص الحبين ، ويفتح لهم
أبو الفرج فصولا مختلفة في كتابه « الأغاني » ومن اشتهر بحبه في العصر البحري .
فقد أحبَّ عَدُوَّه الحلبية حين كان ينزل بحلب في شبابه ، وظلت دارها قائمة هناك
معروفة حتى القرن السادس الهجري إذ نرى ياقوت يقول : « في وسط حلب دار عدوِّه
صاحبة البحري » . وكانت قد بادلت حبيبا بحب ، وله فيها غزل كثير . وظلت
ذكرها لا تبرح مخيلته على نحو ما نرى في قوله وهو بسامراء :

كم ليلة فيكِ بِتُ أَشْهَرُهَا ولوعةٍ في هواكِ أَضْمِرُهَا
وَحُرْقَةٍ والدَّمْعُوعُ تُطْفِئُهَا ثم يعود الجوى فيُسْعِرُهَا
يا « عَدُوَّ » علَّ الزمان يُعَقِّبْنَا أَيَّامَ وَصَلِ نَظْلُ نَشْكُرُهَا

وكان قد بلغ الحسين من عمره ، وكان السنوات الطويلة التي فصلت بين
حبه ، وهو يخطو في شبابه ، وبلوغه الحسين لم تخمد نار حبه المتقدة في صدره
وبين جوانحه ، وعبثا كان يطفئها بالدموع ، فقد كانت سرعان ما تعود أشد
اتقادا واشتعالا ، ولكن ماذا يصنع ؟ إنه يلجأ دائما إلى الدموع قائلا :

وخلافُ الجميل قولُك للذَّاءِ كَرِهْتَ الأَحْبابَ صَبْرًا جميلا
لا تَلُمُّهُ على مواصلة الدَّمْعِ مع فُلُومٍ لَوْمِ الخليل الخليلا
علَّ ماءَ الدموعِ يُخمدُ نارًا من جوى الحُبِّ أَوْ يَبْلُ غليلا

ودارت على الألسنة حينئذ قصة عشق سعيد بن حميد وفضل الفاتنة الشاعرة ،
وكان سعيد يعمل في الدواوين وولى ديوان الإنشاء فترة ، أما فضل فقد فاقت

الجوارى فى عصرها فصاحة وشعراً ، فهويها سعيد وأخذ ينظم فيها مقطوعات كثيرة من مثل قوله :

يا ليلُ بل يا أبَدُ أَنائمُ عنك غَدُ
أشكو إلى ظالمَةٍ أشكو الذى لا تجد
وقُفَّ عليها ناظرى وقُفَّ عليه السُّهْدُ

ووجد غزله بعض الصدى فى قلب فضل ، وأخذت تشفق عليه ، وصبا قلبها إليه ، ففتحت له بابها للزيارة مع من كان يزورها من على القوم ، وكان بيتها تعقد فيه مساءً ندوة كبيرة ، إذ كانت لها مكانة مرموقة . ولم يلبث أن تحوّل عطفها على سعيد إلى محبة كان يحسده عليها كثيرون وأخذوا يتكاثبان شعراً يصوران فيه جيهما ، واتصلت الكتابة ، وروى أبو الفرج منها أطرافاً ، منها ما يصور الحنان بين المحبين ، ومنها ما يصور العتاب الرقيق ، فمن ذلك أنه عتب عليها يوماً أنها لا تُقبل عليه فى مجلسها ، ولا تظهر للناس جيبها واصطفاءها له ، فكتبت إليه :

وعيشك لو صرحتُ باسمك فى الهوى لأقصرْتُ عن أشياء فى الهزل والجِدُّ
ولكننى أبدى لهذا مودتى وذاك وأخلو فيك بالْبَثِّ والوَجْدُ

فهى سيدة كريمة تقبل على من يجالسونها جميعاً ، ويظن سعيد أنهم ينزلون منها منزله أو فوق منزله وهى إنما تخصه بالحب والوجد فكتب إليها سعيد مصوراً حبه لها وصباهته بها :

تنامين عن ليلى وأسهره وحدى وأنها جفونى أن تبشك ما عندى
فإن كنتِ لاتدرين ما قد فعلته بنا فانظرى ماذا على قاتل العمد

وكثيراً ما كانا يتعتابان على عادة المحبين ، وكثيراً ما كانا يتغاضبان ، وسرعان ما يعودان إلى الود والحب ، وكل منهما يشكو لصاحبه ما يلقى من عذاب الهجر وآلامه . وكانت لا تزال الرقاع بينهما ذاهبة آتية ، ومما كتبت له فى بعض الرقاع مستعطفة متلطفة آملة فى اللقاء :

الصَّبْرُ ينقصُ والسَّقامُ يزيدُ والدارُ دَانِيَةٌ وأنتَ بعيد
أشكوكُ أمْ أشكو إليك فإنه لا يستطيع سواهما المجهود

ونعجب أن لا تحتفظ كتب الأدب بما كان بين هذه العاشقين من رسائل متبادلة للأجيال التالية إلا أشياء قليلة ، مع أنها كانت تُعَدّ بحق من طُرف العصر وتحفه . وشاعت في العصر قصة حب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد اشاجي ، وكانت جارية مغنية ، فتنته بجمالها وصوتها ، فنظم فيها غزلاً كثيراً ، ووقع من قلبها كما وقعت من قلبه ، وتزوجته ، ورزق منها الولد ، وظل بها مغرمًا كلفًا ، كما كان يكلف بها قبل زواجه واقترانه بها ، وفي ذلك يقول :

زرعتُ وشاجي بيننا في شَبِيبَتِي غِرَاسَ الهوى فاعتمَّ بالثمر العَذْبِ

واغتصبها الموت منه ، فاسودت في عينيه الدنيا ، وجزع جزعًا لم يجزعه أحد ، وظل يبكيها بكاء حارًّا في قصائد كان يتداولها الناس في بغداد ، وفيها يتفجع ويتوجع أشد ما يكون التوجع والتفجع ، من مثل قوله :

مِمينًا بَأَنِّي لو بُليتُ بفقدِها وبِنبْضِ عِرْقٍ للحياة وللنَّكسِ
لَأَوْشَكْتُ قتل النفس عند فراقها ولكنها ماتت وقد ذهبَتْ نفسِي

وأكثر الشعراء في العصر تصويراً لدقائق الحب وما يثير في النفس من أهواء ومشاعر ابن الرومي ، وكان يحسد جحيمه وعذابه . كما كان يحسد نعيمه ومتاعه وما يجتنى المحبون فيه ويقطفون من زهرات الحب وثماره . وله فيه كثير من المعاني الطريفة المبتكرة التي لم يسبقه إليها سابق ، كقوله في عناق بعض محبوباته :

أعانقها والنَّفْسُ بعدُ مشوقَةٌ إليها وهل بعد العناق تدان
وألثمُ فاها كي تزول حرارتي فيشتدُّ ما ألقى من الهَيِّمان
كَأَن فَوَادِي ليس يَشْفِي غليله سوى أَن يرى الروحين ممتزجان

فالعناق لا يشفي غليل ظمئه ، وكأن في قلبه ناراً أوقدها الحب ، ولا يمكن أن يطفئها شيء ، فهي ما تني مشتعلة ، مهما نعم بالعناق ، إذ لا يزال يحس

الظماً واللهفة واللوعة ، طامعاً إلى امتزاج الروحين . ومن صورهِ البارعة في وصف
سحر العيون ، وما تَبَرى من سهام لا تزال ترسلها إلى قلوب العشاق والمحبين :

نظرتُ فأقصدتِ الفؤادَ بِسَهْمِها ثم انشئتُ عنه فكاد يَهيمُ
وبلأهُ إن نظرتُ وإن هِيَ أَعْرَضَتْ وَقَعُ السَّهامُ ونَزَعُهنَّ أَليمُ

فنظرة هذه الفتاة سهم حقيقى ، وهى سهم يؤلم بسقوطه على الجسم حين
تنظر ، وبنزعه منه حين تعرض ، فياويح من تنظر إليه ومن تنصرف عنه . وأبعد
من هذا التخييل والتصور قوله :

صدورُ فوقهنَّ حِقاقُ عَاجٍ وَحَلَّى زانه حُسْنُ اتِّساقِ
يقول الناظرون إذا رأوها أهذا الحَلَّى من هذى الحِقاقِ

فهو حلّى عجيب مأخوذ من حقاق عجيبة ، وقد وصل بينهما خيال ابن الروى
هذا الوصل البديع .

ولعل العصر لم يعرف شاعراً عذريّاً ، كما عرف في محمد بن داود الأصبهاني
صاحب كتاب الزّهرة ، وقد جعل الجزء الأول منه نصوصاً من الغزل العفيف
وزّعها على خمسين باباً ، وكان فقيهاً على مذهب أبيه داود الظاهري ، وكانت
حلقة من أكبر الحلقات لعصره ، ومعنى ذلك أنه حتى الفقهاء شاركوا في الغزل
حينئذ ، وكان ظريفاً وفيه دعاية ، كما كان فطناً ذكياً ، ويُدْرَوَى أن شخصاً
تعرّض له في حلقة يسأله متى يكون الإنسان سكران ؟ فأجابه : إذا عزبت عنه
الهموم ، وباح بسرّه المكتوم ! . ويُقال إن ابن الروى جلس يوماً في حلقة ،
ودفع إليه ورقة ، فأخذها وتأمّلها طويلاً ، وقلّبها وكتب في ظهرها الإجابة .
وراجع تلاميذه الورقة ، وإذا ابن الروى قد كتب إليه بالسؤال التالى :

يابنَ داوُدَ يا فقيهَ العراقِ أَفَتِنا في قِواتِلِ الأحقادِ
هل عليهنَّ في الجروحِ قصاصٌ أم مباحٌ لها دَمُ العِشاقِ

ونظروا في ظهر الورقة ، وإذا الجواب :

كيف يفتيكم قتيلاً صريعاً بسهام الفراق والإشتياق
وقتيلاً التلاقي أحسن حالاً عند داود من قتيلى الفراق
ولعل في هذا ما يدل على شيوع الغزل في جميع البيئات حتى على لسان الفقهاء
وفي مجالسهن . ولابن داود غزل كثير ، يصف فيه عذاب الحب النقي وآلامه
وما يحتمل فيه من أوصاب الهجر وأوجاعه . على شاكلة قوله :

وكم جرّبتُ من وُضِّلٍ وَهَجَرٍ ومن حال ارتفاعٍ وانّضاعٍ
وكم كَأْسٍ أَمْرٍ من المنايا شربتُ فلم يَصِقْ عنها ذراعى
ولم أَرِ في الذى لاقيتُ شيئاً أَمْرٍ من الفراق بلا وداعٍ
وهو يقول : كم شرب من الحب كثوساً مرة شديدة المرارة ، فتحملها
صابراً ، ويقول : إنه ليس أشد هولا على الحب من الفراق بلا وداع وبلا نظرة
أو سلام أو حتى نحية ولو من طرف خفى . ويصرح مراراً بأن حبه عفيف نقي
شديد النقاء ، لا يتصل به ظن ولا ريبة ولا أى تهمة :

لا تُلْزِمْنِي في رَغْيِ الهَوَى سَرَفاً فما أوفيه إلا دون ما يجبُ
في عَفْةٍ نَحاحى أن يُلَمَّ بها سوى الظنون وأن تغتالها الرّيبُ
وكان من أهم العوامل في شيوع الغزل وانتشاره على ألسنة الناس استمرار
ازدهار الغناء ، وكان المغنون والمغنيات منقسمين إلى مدرستين كبيرتين : مدرسة
محافظة تتبع إسحق الموصلى ومدرسة مجددة تتبع إبراهيم بن المهدي . وكان من
هؤلاء المغنين من يتقن نظم الغزل كما يتقن الغناء ، فكان غزله يمتاز برشاقة وعدوبة
وحلاوة موسيقية رائعة من مثل قول عبد الله بن العباس المغنى :

بأى زورُ أتانى بالغلس قمت إجلالاً له حتى جلس
زارنى يخطِر في مشيته حوله من نور خسلديه قبس
فتعانقنا جميعاً ساعة كادت الأرواح فيها تُختلس

قلت يا سُؤْلِي ويا بَدْرَ الدُّجَى في ظلام الليل ما خِفْتَ العَسَسِ
قال: قد خِفْتُ ولكنَّ الهَوَى آخذ بالروح مني والنَّفْسِ

ويحتلّ كتاب الأغاني بتراجم المغنين والمغنيات في العصر مع تدوين أشعارهم التي تغنوا فيها وما لحنوه من أصوات وأغان . ويدل على كثرة ما تغنّوا فيه من أشعار ما يروى من أن الخليفة المعتمد أمر على بن يحيى المنجم نديمه أن يجمع الأغاني التي صنعتها عَرِيب ، فأخذ منها الصحف والدفاتر التي دوّنت فيها أغانيها ، فكانت ألف أغنية بارعة . وهذا ما تغنّت فيه جارية واحدة ، فما بالنا بما تغنى فيه عشرات المغنيات والمغنين ؟ إنه شيء يعزّز إحصاؤه ، وكأن الناس لم يكن لهم من شاغل في هذا العصر إلا أن يختلفوا إلى دور الغناء ، مثلهم في ذلك مثل سالفهم في العصر السابق لعصرهم . وكانت قصور الخلفاء والوزراء وعلية القوم تكتظ بالقيان ، وبالمثل دور النخاسين ، وقلما كان في بغداد ومدن العراق من لا يحظى في داره بجارية مغنية تمتعه بغنائها صباح مساء . وكثيرات من الجوارى كن يُبْعَنَ ويرحّلن في البلاد ويحملن معهن أغاني الحب والغزل . والمهم أن المغنيات والمغنين جميعاً عملن على ذبوع هذه الأغاني ، ويروى عن محمد ابن داود أنه كان يسير يوماً في بغداد مع القاضي محمد بن يوسف ، فسمع جارية تغنى في شعره :

أشكو غليلَ فؤادٍ أنت مُتْلِفُهُ شكوى عليلٍ إلى إلفٍ يعلُّهُ
سقمى تزيد - على الأيام - كثرته وأنت - في عظم ما ألقى - تقلُّهُ
الله حَرَمَ قتلى في الهوى سَلَفاً وأنت - ياقاتلي - ظلماً تحلُّهُ

ولم تكن الجوارى - كما مر بنا في العصر العباسي الأول - يُسْعِنَ شعر الحب والغزل عن طريق الغناء به فحسب ، فقد كن يكتبن أبياتاً رقيقة منه على ثيابهن وأكمامهن وعصائبهن ومناديلهن وذوائبهن وفرشهن ، حتى يجذبن إليهن الرجال ، وكان التجار يستغلون ذلك - كما مرّ بنا - فكثرت كتابة شعر الحب على كل ما تلبسه المرأة وتقرّين به .

ومضى شعراء الغزل والحب - كما مر بنا في العصر الماضي - يحاولون القرب من لغة الجمهور اليومية ، حتى يتيحوا لغزلهم كل ما يمكن من ذبوع بين العامة ، مجرّين فيه تباراً دافقاً من الرقة ، حتى يقع موقعاً حسناً من الجوارى ، وحتى يعجبهن ما فيه من رهاقة الشعور وسهولة الألفاظ ، على شاكلة ما يلقانا عند خالد بن يزيد الكاتب إذ يقول :

رقدتَ ولم تَرثِ للّسّاهِرِ وإيسلُ المحبِّ بلا آخِرِ
ولم تذرِ بعد ذهاب الرُّقا د ما صنع الدَّمْعُ بالناظرِ

وهو ساهر يبكي بدموع غزيرة ، والمحبوبة بجانبه ، يتجشّم آلام الحب المبرحة ، وكأنما لم يعد لليل آخر ، فالظلام يغطّي الكون ويستره ، وتستره معه الدموع التي لا تجفُّ ولهاً وصبايةً . ومن طريف ما نقرأ من غزل خفيف قول الحسين بن الضحاك :

عالمٌ بحبِّيهِ مُطْرِقٌ من التَّيهِ
يوسفُ الجمالِ وفر عونٌ في تعديهِ
ما الحياة نافعةٌ لي على تأبِّيهِ
النَّعيمُ يشغله والجمالُ يُطغيهِ

والمقطوعة تذوب رقة وعدوبة ، وتكاد تطير عن النغم بخفة طيراناً ، سواء بوزنها القصير الوافر اللحن والنغم أو بمعانيها المتقابلة أو بألفاظها السهلة المألوفة ، وعلى شاكلتها قول البخارية فضل :

علَمَ الجمالِ تركتني في الحب أشهرَ من علَمَ
ونصبتني يا مُنيستى غرضَ المُنْظَةِ والتُّهَمِ
فارتقتني بعد الدنـ وفصرتَ عندي كالحُطَمِ
ما كان ضررك لو وصل مت فحفتَ عن قلبي الألمِ

وهي تجعل محبوبها علماً للجمال كما يجعله مُنيستها ، ثم تقول له إنك شهرتني

بحبك ثم هجرتني هذا المجران الطويل ، حتى صارت أيام وصلك كأنها حلم ،
وتود لو ظفرتُ ثانية بوصله حتى تزايلها أوصاب حبها المبرحة . والمقطوعة
كسابقتها تكتظ بالنغم ، ولغتها سهلة خفيفة شديدة الحفة . ومثلها قول جحظة
البرمكي :

وقلتُ لها : بَخِلْتِ عَلَيَّ يَقْظَى فجسودى فى المنام مستهامـ
فقالَتْ لى : وصرتَ تنام أيضاً وتطمع أن أزورك فى المنام

وفكرة البيت الثانى فى غاية اللطف والرفقة . ولغة هذا الغزل كله لا تفرق عن
اللغة اليومية فى السهولة والبساطة ، وكان ذلك يشيع فى الغزل جميعه ، إلا حين
يبحر بعض الشعراء إلى الجزالة والرصانة ، ولم يكن ذلك الغالب ، إنما كان الغالب
أن يحنحوا إلى العذوبة والحفة والرشاقة .

وكان من الشعراء فى العصر من يعكفون على الخمر فى حوانيتها وحاناتها
وفى دور النخاسين والأديرة والمتنزعات ، وكان منهم من لا يكاد يفيق منها إلا لكى
يعود إليها أكثر شوقاً ولحفة ، ونراهم يصفونها ويصفون مجالس أنسها ودنانها
وكؤسها وسقائها والنشوة بها وصفاً كله شغف وغبطة وابتهاج . وشياطين كثيرون
كانوا يتعاشرون ويترافقون فى الحانات والمتنزعات والأديرة ، وكان حتى الكرم
بيغداد يكتظ بهم مثل عصابة أبى هفآن ومحمد بن الفضل ومحمد بن مكرم
وأبى على البصير وأبى العيناء ، وكانوا يسمون شياطين العسكر لإدمانهم على الخمر
والخجون ، ومثلهم عصابة أبى السفاح الأنصارى وعبدالله بن رضا وإسماعيل بن يوسف
الذين تعاهدوا أن لا يقولوا شعراً إلا فى وصف الخمر ، وظلوا على ذلك طوال
حياتهم . وكان وراء هؤلاء من يعاقرونها ويصفون أهواءها الجاحمة ، وهم فى ذلك إنما
بصوِّرون طبقة كبيرة ، كانت تعاقرها مثلهم وتتهالك على لذاتها الآثمة ، وكأنما
كان ابن المعتز يصفهم إذ يقول :

شربنا بالكبير وبالصغير ولم نحفل بأحداث الدهور
وقد ركضت بنا خيلُ الملاهى وقد طرنا بأجنحة السرور

وهو يصور عكوف هذه الطبقة على الخمر وعَبَّهَمُ منها بالأقداح الكبيرة والصغيرة ، وهم يكادون يطiron فرحاً ومسرة إذ يتناولونها ، وكأنها الداء والدواء والسقام والشفاء ، ولابن المعتز فيها أشعار كثيرة من مثل قوله فيها وفي جارية حملت كنوسها له :

سقتنى في ليلٍ شبيهٍ بِشَعْرِها شبيهةً خَلْدِها بغير رقيب
فأَمْسَيْتُ في ليلين: بالشعر والدُّجَى وخَمْرين من راحٍ وَخَدَّ حَبِيبِ

وكثير من شعره فيها وفي الغزل يمتاز بالسهولة المفرطة ، مما جعل بعض معاصريه يثيرون غباراً كثيفاً ضده ، وردَّ عليهم أبو الفرج في كتابه الأغاني ردّاً مسهباً قائلاً : « شعره إن كان فيه رقة الملوكة وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى في أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين . . . وليس يمكن واصفاً لَصَبُوح (خمر الصباح) في مجلس ظريف بين ندامى وقيان على ميادين من التَّوَر والتَّنَفُّس والتَّرجس ومنضود من أمثال ذلك . . . أن يعدل عما يشبهه من الكلام السهل الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جَعْد الكلام ووحشيه وإلى وصف البید والمهامه والظبي والظلم (ذكر النعام) والناقة والحمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة » .

ولا ريب في أن أبا الفرج أنصف ابن المعتز ، إذ لاحظ من حقه أن يتطور بشعره وأن يصور فيه بيئته وحضارته وعصره ، ولاحظ أبو الفرج أيضاً أنه من حق ابن المعتز أن يبسط لغته وأن ييسرها ويخليها من شوائب الألفاظ الآبدة الغريبة في الغزل ونعت الخمر ، بحيث تكون سلسلة عذبة ، حتى يقع موقعاً حسناً من معاصريه . ومثله كان ابن الرومي في غزله ونحمره جميعاً ، ولعل أحداً لم يصور أثر الخمر في نفوس الحبان وما تحدث فيهم من السرور وانفساح الأمل ، حتى ليتخيلون إمكان وقوع المستحيل وحدوثه . كما صور ذلك في قوله :

ومُدَامَةٍ كَحُشَاةِ النَّفْسِ لَطُفَتْ عن الإدراك والجِسْ
لنسيمها في قلب شاربها رَوْحُ الرجاء وراحةُ النَّفْسِ
وتمدُّ في أمل ابنِ نَشْوَتِها حتى يؤمل مرجع الأَمْسِ

وطبيعى أن تسهل لغة الحمريات لأن من كانوا ينظمونها كانوا يوجهونها غالباً إلى المحبّان الذين يختلطون بهم في الحانات ، وقد يسفّون لأنهم يوجهونها أحياناً إلى غلمان هذه الحانات وكانوا أخلاطاً من أبناء الفرس وغيرهم ممن لا يحسنون اللغة المرتفعة عن لغة حياتهم اليومية . ومن المؤكد أن ابن الروى كان أكثر شعبية من ابن المعتز ، فقد كان الثانى أميراً من أبناء القصور ، بينما كان ابن الروى من أبناء الشعب ، فتأصلت الشعبية في نفسه ، مما جعله يقترب اقتراباً شديداً في خمرة وغزله وغيرهما من أغراض شعره من اللغة البغدادية اليومية ، حتى ليستحيل كثير من أشعاره إلى ما يشبه صحيفة شعبية ، بما صور فيها من ألوان السكان ببغداد على اختلاف مشاربهم ومنازعهم ، إذ نرى رؤية واضحة الحكماء والقضاة والعلماء من كل صنف والكتّاب والبرّازين والعطّارين والخبّازين والحمّالين والشوّائين والشحّاذين ، كل أولئك وأضرابهم يُرسمون في أشعاره ، وتُرسّم معهم ملابسهم ، حتى ملابس البؤساء المرقّعة والبالية . وكان منهوماً بالأطعمة ، فلم يترك لوناً من المأكّل والحلوى والشراب دون أن يصفه ، ومن قوله في رؤوس خرفان مشوية وما معها من أرغفة :

روسٌ وأرغفةٌ ضخامٌ فخمَةٌ قد أخرجتُ من جاحمٍ فوّارٍ
كوجوه أهل الجنة ابتسمتُ لنا مقرونةً بوجوه أهل النارِ

وله مقطوعات بدیعة في المرقّقات والقطائف والأطعمة والفواكه ، وبذلك أعطانا صوراً حية للمآدب في بغداد والولائم . وكل ما قدمنا جعل ابن الروى من أقرب الشعراء إلى روح الشعب ، كما جعل لغته قريبة قريباً شديداً من لغته في حياته العاملة اليومية ، لا في هذه الموضوعات الشعبية الخالصة فحسب ، بل في كل الموضوعات والأغراض التي تناولها ، حتى في المديح ، وتشهد لذلك أبيات هنأ بها الخليفة المعتضد حين زُفّت إليه قطر الندى الأميرة المصرية بنت خمارويه ، كان الشعب في بغداد يتغنّى بها في استقبالها مهلاً مبهجاً ، وهي تمضى على هذا النمط :

يا سيّد العرب الذى زُفّت له باليمن والبركات سيّدة العجمِ

اسْعَدْ بِهَا كَسْعُودَهَا بِكَ إِنَّهَا ظَفَرَتْ بِمَا فَوْقَ الْمَطَالِبِ وَالْهَمَمِ
ظَفَرَتْ بِمِلْئِي نَاضِرِيهَا بِهَجَةٍ وَضَمِيرِهَا نُبْلًا وَكَفَّيْهَا كَرَمَ
شَمْسُ الضُّحَى زُقَّتْ إِلَى بَدْرِ الدُّجَى فَتَكَشَّفَتْ بِمَا عَنِ الدُّنْيَا ظَلَمَ

ومن تنمة هذه الطوايع الشعبية عند ابن الرومي شغفه شغفًا لم يُعرَفَ لشاعر قبله بالطبيعة . وكأنه يصور في هذا الشغف فتنة البغداديين بها وبمشاهدها الخلابه ، ومعيشتهم فيها مع كل نبضة وكل همسة وكل حركة ، معيشة كلها وله هيام بالصباح حين يغمر الضياء الكون ، وبالمساء حين تودع الشمس الطبيعة وتفرق لوداعها دموع الندى في عيون الأزهار محزونة حزن المحبين ، وبالنسيم الليل حين ينعش الأرواح ، وبالأغصان حين تداعبها الرياح ، وبالطير حين تشدو فتملأ الجو مرحًا ، وبعطر الطبيعة البهيج يملأ النفس حنانًا ومودة كرائحة الأولاد البارئين ، ونسوق له قطعة تصور هذا الجانب عنده وعند معاصريه من البغداديين :

ورِياضُ تخاليلِ الأَرْضِ فيها خِيَلَاءُ الفتاةِ في الأبرادِ
ونسيمُ كَأَنَّ مَسْرَاهُ في الأَر واحِ مَسْرَى الأرواحِ في الأجسادِ
منظرٌ معجَبٌ نَحْبَةُ أنْفِ رِيحُهَا رِيحُ طَيْبِ الأولادِ
تتداعى بها حمائمُ شَتَّى كالْبواكى وكالْقِيانِ الشَّوَادِ
تتغنَّى القِرانُ منهن في الأَيِّ لِكِ وتبكي الفِرَادُ شَجْوَ الفِرَادِ

والقِرانُ : المقترنات . وهن يتغنين فرحًا ، وتتغنَّى الفِرَادُ المتوحدات حزناً إذ ليس لهن قرين ، فهن يبكين الانفراد والوحدة والوحشة . وعلى نحو ما عُنِيَ الشعراء من أمثال ابن الرومي بوصف الطبيعة عُنُوا بوصف الصيد . وأكثرُوا من الحديث عن آلاته من النَّبَلِ والسَّهَامِ والنَّشَابِ والفَخِاخِ والشِّبَاكِ والحبال المسماة بالأوهاق والجلاهيق وهو ضرب من بندق الطين كانوا يرمون به الصيد . وبالمثل أكثرُوا من الحديث عن جوارحه وضواريه من الفهوض والكلاب والصقور .

وكان شعر الزهد يشيع على كل لسان لما يصور من حياة الشظف التي كانت

نحياها الطبقات الدنيا في الأمة . ولما يدعو إليه من تقوى الله في السر والعلن ، وكانت المساجد حافلة بالوعاظ والناس يتحلقون من حولهم مستمعين في إنصات إلى مواعظهم التي تزهد في متاع الحياة الزائل ، انتظاراً لما عند الله في الآجل ، ومصيبخين إلى ما يتحدثون به عن الموت ، وأن الحياة رحلة قصيرة ، تنتهي دائماً به ، فكل من عليها فان ، ولن يبق للإنسان إلا عمله ، فإما إلى الفردوس والنعيم ، وإما إلى النار والجحيم . وكانوا يتمثلون للناس في أثناء مواعظهم بأشعار تخصهم على التقشف والتبتل والعبادة . وبلغ من اتساع موجة هذا الزهد أن رأينا الشعراء الذين لم يُعترفوا بزهد ، وحتى من عاقدوا الخمر واقترفوا الآثام يثوبون إلى رشدهم ، فينظمون فيه مقطوعات وقصائد ، وكأنما سكنت إليه نفوسهم أخيراً واطمأننت ، أو قل كأنما يريدون أن يتغنوا للعامة بمشاعرها وما كانت تُفضي إليه من حياة التقشف والنسك والعبادة ، مبتهلة إلى ربها داعية ، تائبة مستغفرة ، وطوال الليالي تدعو وتتلو وتصلي وتبتهل مؤهلة في القبول ، معدة الزاد للحياة الآخرة ، واثقة بالمعاد ، مستزيدة ما استطاعت من العتاد . ولعل أحداً لم يرسم صورة الزاهد في هذا العصر كما رسمها شاعر الشعب ابن الرومي ، وفيها نرى الزاهد ساهراً طوال الليالي والأسحار ، يسبح بذكر الله ويثني على آلائه ويتلو آيات كتابه ، وكلما مرت به آية وعيد ذرفت عيناه الدموع ضارعاً إلى ربه أن ينجيه من عذاب النار . وأن يغفر له خطيئاته وسيئاته ، ومن نعت له فيها قوله :

بات يدعو الواحد الصمدا	في ظلام الليل مُفردا
في حشاه من مخافته	حُرقات تلذع الكبد
كلما مر الوعيد به	سح دمع العين فاطردا
قائل : يا منتهى أُملى	نجنى مما أخاف غدا
وخطيئاتي التي سلفت	لست أحصى بعضها عددا
ويح عيني ساء ما نظرت	ويح قلبي ساء ما اعتقدا

وكان من آثار اتساع الزهد حينئذ نمو التصوف الذي يقوم على محبة الله حباً يستأثر بقلب المحب وأهوائه وعواطفه ، ويُعدّ ذو النون المصري أباه الحقيقي ، إذ

فجّر فيه لأول مرة فكرة المعرفة الصوفية التي تستمد من القلوب ، وتأثر به سريعاً متصوفة بغداد . ولعل في هذا إشارة كافية إلى أن المتصوفة في العالم الإسلامي ، مهما أبعدها في الشرق أو في الغرب ، كانوا يؤلفون فيما بينهم وحدة أو جماعة واحدة ، فما يقوله متصوف في مصر سرعان ما يتناقله متصوفة بغداد وأقصى الشرق في خراسان من مثل قول ذي النون في مخاطبة الذات الإلهية :

أَمُوتَ وَمَا مَاتَتْ إِلَيْكَ صَبَابَتِي وَلَا قُضِيَتْ مِنْ صِدْقِ حَبِّكَ أَوطَارِي
تَحْمَلُ قَلْبِي فِيكَ مَا لَا أَبْشُهُ وَإِنْ طَالَ سَقَمِي فِيكَ أَوْ طَالَ إِضْرَارِي

وكان هؤلاء المتصوفة يجلسون للناس في المساجد ، وكثيراً ما كانوا يتحلّقون حولهم ، وهم يعظونهم ، وينشدونهم ماحفظوا لذي النون وغيره من أئمتهم من أشعار تصور مبادئهم الصوفية ، كمبدأ الفناء عن الذات الإلهية ، بحيث تنمحي إرادة الإنسان في إرادة ربه ، حتى يدرك مأموله وينال مطلوبه ، من رؤية الذات العلية ، ومن كان يذكر هذا المبدأ كثيراً في مواعظه الجُنَيْدُ صوفيُّ بغداد المشهور ، وفيه يقول مناجياً ربه :

أَفْتَنَيْتَنِي عَنْ جَسِيمِي فَكَيْفَ أَرْعَى الْمَحَالَّ

وطبيعي أن يتضمن هذا المبدأ مبدأ الفناء المطلق في الله تجرّد الإنسان من كل شهواته ورغباته بحيث لا يبقى فيه لأى شيء إدراك أو إحساس سوى ربه والانمحاء فيه انمحاء تاماً . وانبثق من هذا المبدأ مبدأ وحدة الشهود ، وأيضاً مبدأ وحدة الوجود الذي يذوب فيه المحب في المحبوب ، على نحو ما نرى عند الحلاج في قوله :

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنًا
فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَهُ وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا

فقد فني عن وجوده الإنسانى المنقطع غير الدائم ، واتحد مع ربه ووجوده الدائم المتصل ، أو قل كأنما انتقطع الأول واتصل الثانى ، أو كأنما أصابه منه قبس أو سراج أشعل روحه ، حتى فني عن جسده ، ولم يبق منه إلا روحه واللباب

الدائم ، فضاء الفانى أو قل انمحي وظل الباقي ، أو بعبارة أدق ظلت الصورة الإلهية وانطبعت في نفسه ، مما جعله يظن أن الله يُرَى فيه . وأوغل في هذا المبدأ حتى أحس معاصروه بأنه انحرف عن الطريق السَّوَّى وحُوكَم ، وحُكِم بِصَلْبِهِ ، وتفرق أتباعه ، ولكن المتصوفة في بغداد وإيران ظلوا يرددون أشعاره طويلاً . وكان يعاصره الشَّبْلَى . ولم يكن يقول بوحدة الوجود ولا وحدة الشهود ، وكان صوفيًّا كبيراً ، وكان له أتباع كثيرون . وكان لوعظه حلاوة وتأثير بعيد في القلوب ، وكان يعظ الناس في المسجد الجامع ببغداد ، وكان يحضر مجلسه يومياً مئات من مختلف الطبقات بين وزير وبائس فقير . وكان يكثر في مواعظه من إنشاد الشعر ، يصور فيه محبته لربه وما يَصَلَّى فيها من عذاب شديد ، وكيف يمضي أوقاته في نيرانها المحرقة ، وعبثاً يستطيع إطفاءها بدموعه الغزيرة ، ومن قوله :

قبورُ الورَى تحت التراب وللهمى رجالُ لهم تحت الشياب قبورُ
وعندى دموعٌ لو بكيتُ ببعضها لفاضتُ بحورُ بعدهن بحورُ

وكان الناس يتداولون أشعار المتصوفة حينئذ ، ويرددونها فيما بينهم متخذين منها العظة والعبرة ، وكانت لهم في نفوس العامة محبة كبيرة لرفضهم متاع الحياة الزائل ، وإقبالهم على ما عند الله من الثواب الآجل . ومما يدل بقوة على تعلق العامة بهم ما يُروى من أن الجنيد صوفى بغداد الكبير حين توفي لسنة ٢٩٧ صَلَّى عليه ما لم يكده يُحْصَى من الخلق والناس ، حتى قيل إنه بلغ من صلوا عليه نحو ستين ألف إنسان ، وكان وراءهم عدد مماثل منتظر ، ليسير في الجنازة ، وظل الناس نحو شهر يتعاقبون على زيارة قبره في كل يوم . وظلت العامة تتناقل مواعظه وما كان ينشد فيها من أشعار طويلاً .

وعلى نحو ما كان المتصوفة والزهاد يعبرون بأشعارهم للعامة عن هذا الغذاء الروحي كان كثير من شعرائها يشتركون مع جمهورها في البؤس ويعبرون عنه بأشعار تصور حياتهم التعمسة ، إذ كانت تنعم بالترف الطبقة الأرستقراطية من الشعب ، أما هم فكان يضنيهم الجوع وقلما وجدوا كساء سابعاً ، إذ لم تكن الطبقة المترفة تفكر في إطعام جائع ولا في كسوة عار ، إنما كانت تفكر فقط في استمتاعها بالحياة . وقد مضى كثير من شعراء الشعب المحرومين يصورون

حياة الضنك التي يحيونها ، وفي مقدمتهم جَحْظَةُ اليرمكى الذى يصور دائماً بؤس أمثاله من أبناء الشعب بمقارنة حياته بحياة المترفين فى الطعام وغير الطعام ، ومن قوله :

إني رضيتُ من الرحيقِ بشرب تمرٍ كالعقيقِ
ورضيتُ من أكل السَّمِيعِ لذِّ بأكل مسودِّ الدقيقِ
ورضيتُ من سَعَةِ الصَّحْوِ نِ بمزْلِ ضنكٍ وضيقِ

فهو يرضى بعيشه البائس ، يرضى بشرب التمر عن الخمر شراب المترفين لعصره ، وبالدقيق الأسود عن الدقيق الناعم الرافه ، وبالمزلة الضيق عن القصور ذات الأفنية الواسعة . ودائماً يذكر أنه ليس له خدم ولا غلمان ، يقول :

أَحْمَدُ اللَّهِ لَمْ أَقْلُ قَطُّ. يَا بَدُّ رُ ويا مُنْصَفاً ويا كَافُورُ
لا ، ولا قَلْتُ أَيْنَ أَيْنَ الشَّوَاهِي نُ ووزَانُنَا وَأَيْنَ البُذُورِ
لا ، ولا قِيلَ قَدَأَتَاكَ مِنَ الضُّيِّ عة بُرٌّ مَوْقَرٌ وَشَعِيرِ
أَنَا خِلْدُوْ مِنْ المَمَالِيكَ وَالْأَمَّةِ لَآك جَلْدٌ عَلَى الْبِلَا وَصَبُورِ
ليس إِلَّا كَسِيرَةٌ وَقُدَيْحُ وَخُلَيْقُ أَتَتْ عَلَيْهِ الدَّهْورِ

والشواهين : أعمدة الموازين . فهو لا يملك رقيقاً وعبداً ، وليس له ميزان يزن به حصيد الضياع من البر أو القمح والشعير ، إذ لا ضياع له ولا عقار ، إنه لا يملك شيئاً سوى البؤس والحرمان وكسرة من الخبز وقذح من الماء وثوب خلق* بال لا يكاد يستر جسده ، ومن قوله :

الحمدُ لله ليس لى كاتبُ ولا على باب منزلى حاجبُ
ولا حمارٌ إذا عَزَمْتُ عَلَى ركوبه قِيلَ جَحْظَةُ رَاكِبُ
ولا قميصٌ يكون لى بدلاً مخافةً من قميصى الذاهبِ
وأجرةُ البَيْتِ فَهِيَ مُقَرَّحَةٌ أَجْفَانِ عَيْنِي بِالْوَابِلِ السَّاكِبِ

فهو لا ينعم بما ينعم به أصحاب الجاه والسلطان من كثرة الكتّاب والحجّاب ، بل ليس له كاتب واحد ولا حاجب واحد . ليس له سوى البؤس والفقر المدقع ، بل ليس له دابة يركبها ، بل ليس له حمار يغدو عليه أو يروح . وليس له قميص ثان سوى قميصه ، يستطيع أن يلبسه حين يصبح الذي يكسوه بالياً . وإنه لتزعجه أجرة البيت مع مطلع كل شهر ، بل مع مطلع كل يوم ، إذ لا يملك شروى نقير ، أو قل لا يملك ديناراً ولا درهماً . وإنها لتقرح أجفانه بالبكاء والدموع . إذ لا يستطيع سداها . ولا من مشفق عليه ولا رحيم . وضاع منه نعله فقال :

يا قومُ مَنْ لِي يَنْعَلِي أَوْ فِي مَصْحَفٍ نَعْلِي

ويقصد بمصحف النعل بغلا يركبه . وسار البيت في بغداد ، حتى رواه الصبيان في الطرقات .

ومن أقوى الأدلة على أن الشعر في هذا العصر كان يصدر عن روح الشعب وأن أفراداً جميعاً كانت تشترك فيه أننا نجد بين شعرائه في مدن العراق أميين يجيدون نظمه ، وكأنه كان غذاءً عاماً للشعب ، تسهم فيه جميع طبقاته وعناصره . وربما كان أهم هؤلاء الشعراء الأميين الخُبَزُ أُرْزَى البصري وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وكان له دُكَّانٌ يخبز فيه خبز الأرز بالبصرة يتعيش منه . ومن هنا جاء لقبه الذي اشتهر به . وفي أثناء خبزه الأرز كان ينشد أشعاره ، وأكثرها في الغزل . والناس يزدحمون عليه طلباً لغذاء معداتهم من الطعام ، وغذاء أرواحهم من الشعر . وشعره جميعه فصيح غير ملحون ، مما يؤكد بوضوح ما قلناه مراراً وتكراراً من شعبية الشعر العربي وأنه كان على كل لسان ، ومن هنا كان مرآة ناصعة نقية لروح الشعب . يعرضها بجميع انطباعاتها الشعبية . وطبيعي أن يتميز غزل الخبز أُرْزَى — وهو من أبناء الشعب — بسهولة مفرطة ، وكأن لغته صورة للغة الشعبية في عصره ، ولعل ذلك ما جعل شعره يدور بقوة على ألسنة الصبيان والشبان والشيوخ ، ويقول المسعودي المؤرخ البغدادي معاصره : « أكثر الغناء المحدث في وقتنا هذا من شعره » . ومن طرائف غزله قوله :

الشعر وطوايحه

رَأَيْتُ الْهَلَالَ وَوَجَهَ الْحَبِيبِ فَكَانَا هَلَالَيْنِ عِنْدَ النَّظَرِ
فَلَمْ أَذَرْ مِنْ حَيْرَتِي فِيهِمَا هَلَالَ الدُّجَى مِنْ هَلَالِ الْبَشَرِ
وَلَوْلَا التَّوَرُّدُ فِي الْوَجْنَتَيْنِ وَمَا رَاعَنِي مِنْ سَوَادِ الشَّعْرِ
لَكُنْتُ أَظُنُّ الْهَلَالَ الْحَبِيبَ وَكُنْتُ أَظُنُّ الْحَبِيبَ الْقَمَرَ

وهو تصوير جيد ، أشاع فيه تلك الحيرة التي خالجتته ، فلم يعد يتبين أين هلال الدجى وأين هلال البشر ، وظل يتأمل ويطيل النظر ، حتى لفته تورده الوجنتين وسواد الشعر ، فأدرك أين الحبيب وأين الهلال ، وإلا تبادت به حيرته . وكان خفيف الظل لطيف المعشر أنيس المخضر فكهاً ، فشغف به أهل البصرة في حياته ، يتجمعون كل مساء حول دكانه ، وظلوا يذكرونه بعد مماته . ومن مداعباته قوله في تصوير مائدة أحد أصدقائه وأنها تكاد تكون خالية من الأطعمة إلا ما مُدَّ عليها من الأواني :

ولعمري كان الخِوَانُ ولكنْ لم يكن ما يكون فوق الخِوَانِ
وجِفَانٍ مِثْلَ الْجِيَاضِ ولكنْ ليس فيهن ما يُرَى بِالْعِيَانِ
فَإِذَا مَا أَدْرْتُ فِيهَا بَنَانِي لم أَجِدْ مَا أَمْسُهُ بِبِنَانِ
إِنِّي مَا ضَعُفْتُ عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ غَيْرَ صَكِّ الْأَسْنَانِ بِالْأَسْنَانِ

ولعل من أقوى الأدلة أيضاً على أن الشعر في هذا العصر كان يشترك فيه كثيرون من أفراد الشعب الأميين ، وكأنه لسان الجميع ، أننا نجد الجاحظ يؤلف رسالة يسميها رسالة صناعة القواد ، ملأها بأشعار على ألسنة العامة من حاكة الثياب والخبّازين وأصحاب الحمامات والكنّاسين والسقاة في الحانات والطباخين والفراشين القاطنين على المنازل . وكأنه ليست هناك طائفة من طوائف الشعب وعمله إلا وهي تنظم الشعر وتصور به خواطرها وخوالجها . ولكي تصبح الرسالة طرفة أدبية بديعة جعل الجاحظ كل شاعر من شعراء هذه الطوائف يستظهر في شعره بعض الكلمات والألفاظ التي تدور على ألسنة جماعته ، من مثل قول حائك متغزلاً :

أَزْرَارُ عَيْنِي فِيكَ مَوْصُولَةٌ بِعُرْوَةِ الدَّمْعِ عَلَى خَدَيَّ

وقول نخبَّاز :

قد عَجَنَ الهَجْرُ دَقِيقَ الهَوَى فِي جَفَنَةٍ مِنْ خَشَبِ الصَّدِّ
وَأَقْبَلَ الهَجْرَ بِمِخْرَاقِهِ يَفْحَصُ عَنْ أَرْغَفَةِ الْوَجْدِ
وقول حمّامى أو صاحب حمّام :

أَوْقِذْ أَتَوْنَ الْوَصْلَ لِي مَرَّةً مِنْكَ بِزَنْبِيلٍ مِنَ الْوُدِّ
وقول كنّاس :

خَنَافِسُ الهِجْرَانِ أَتُكَلِّنُنِي نَوْمِي فَوَلِّ مُعْرِضاً صَبْرِي
وقول ساق للخمر في إحدى الحانات :

شَرِبْتُ بِكَأْسٍ لِلْهَوَى نَبْذَةً مَعاً وَرَقَرْتُ خَمَرَ الْوَصْلِ فِي قَدَحِ الْهَجْرِ
وقول طبّاخ ذا كراً لونين من الحلوى :

يَا شَبِيهَ « الْفَالُودِ » فِي حُمْرَةِ الْحَذِّ دُ « لَوْ زِينَجَ » النَفُوسِ الظَّمَاءِ
وقول فرّاش :

فَرَشَ الْهَجْرُ فِي بَيْوتِ هُمُومٍ تَحْتَ رَأْسِي وَسَادَةَ الْبُرْحَاءِ

والبرحاء : تباريح الحب وآلامه . وقد يظن ظان أن هذه الأبيات من صنع الجاحظ نفسه ، وحتى إن صح ذلك فإن الرسالة دليل على أنه ثبت عند الجاحظ ومعاصره أن كل هذه الطوائف الشعبية كان ينبغي فيها شعراء مختلفون ، وطبيعي أن يمثلوا الانطباعات الشعبية لحرفهم وصناعاتهم ، وأن يتداول الناس أشعارهم وينشدوها على نحو ما أنشدوها أو تمثلها الجاحظ في رسالته .